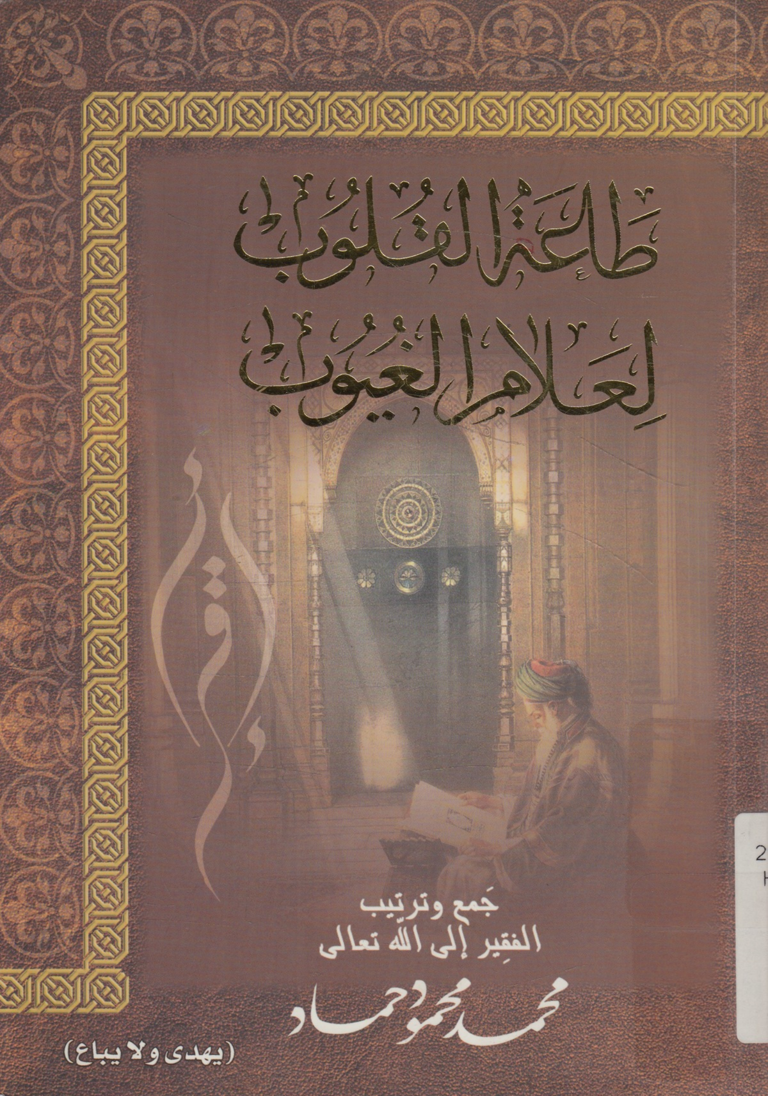

طاعة القلوب
لعلام الغيوب
جَمع وترتيب
الفقِير إلى الله تعالى
محمد محمود حماد
(يهدى ولا يباع)

طاعة القلوب
لعلام الغيوب

جمع وترتيب
الفقير إلى الله تعالى
محمد محمود حماد

الطبعة الثانية

إهداء ... وشكر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥) .

إلى كل مسلم ومسلمة .. يبتغي وجه الله تعالى
وإلى كل من عاون في مراجعة وإخراج هذا الكتاب
و إلى كل من يكون سبباً في نشره

يهدى ولا يباع

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ثم الصلاة والسلام على النبى المجتبى، والرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه.

أما بعد، بتوفيق الله تعالى وفضله كان هذا الكتاب: (**لمحات قرآنية حول طاعة القلوب لعلام الغيوب**) والذى يتعلق موضوعه بمحور الحياة وغاية الوجود: طاعة الله سبحانه، ويتناول القاعدة المؤثرة فى حركة العبد صلاحاً أو فساداً، والمتمثلة فى القلب الذى يشكل المركز الرئيس فى قضية الطاعة لرب العالمين والانقياد لأمره والاستسلام لإرادته وحكمه.

والله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقه سدى مهملاً، بل جعلهم مورداً للتكليف، ومحلاً للأمر والنهى، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملاً ومفصلا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٢)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ (التغابن: ٨.) وقسمهم إلى شقى وسعيد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (هود: ١٠٥)، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلا، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب والسمع والبصر والجوارح نعمة منه وتفضلا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النحل: ٧٨).

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه، ولم يبغ عنه عدولا ، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلا ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل: ٩٧)، ومن استعمله في إرادته وشهواته ولم يرع طاعة خالقه فيه؛ تحسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزنا طويلا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (النمل: ٥)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (التوبة: ٧٧)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (البقرة: ٧). فإنه لا بد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله سبحانه وتعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٦).

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت طاعته وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال صلى الله عليه وسلم (ألا وإن في الجسد مُضغَة إذا صلحت صلح الجسد كله)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الشعراء: ٨٩)، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى يصدر عن قصده ونيته.

وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما عتمد عليه السالكون قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد: ٢٨).

ومن ثم فإن عبادة الله جل وعلا تتضمن أمرين، لا بد من انضمام أحدهما للآخر ليتحقق معناها، هما غاية التذلل وغاية المحبة، ثم يتمثلان فى حركة العبد كمالاً فى الطاعة والاستجابة، ولذا سمى ما يقوم به المكلفون من الطاعات عبادة لأنهم يفعلونها على وجه التذلل والمحبة لربهم سبحانه وتعالى.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّن له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمدّه من أسباب الغَى بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق قال تعالى: ﴿ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الحج: ٥٣)، وقال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأنعام: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سبأ: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ ﴾ (النساء: ١١٩)، وقال

تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ (المجادلة: ١٩).

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله، والتعرض لأسباب مرضاته، قال تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) ﴾ (الكهف: ١٤)، والتجاء القلب إليه فى حركاته وسكناته، والتحقق بذلّ الطاعة الذى هو أولى ما تلبَّس به الإنسان، ليحصل له الدخول فى ضمان ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (الحجر: ٤٢)، و﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾ (الزمر: ٢٢)، فهذه الإضافة هى القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام الطاعة لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب الطاعة والإخلاص صار عند الله سبحانه وتعالى من المقربين، وشمله استثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ (الحجر: ٤٠)، و﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ (الرعد: ٢٨)، و﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) ﴾ (النحل: ٩٩)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) ﴾

(الإسراء: ٦٥).

ولما منّ الله الكريم بلطفه بالاطلاع على ما اطلع عليه من مفاسد القلوب وأدوائها، وما يعرض لها من وساوس الشياطين أعدائها، وما تثمرها تلك الوساوس من الأعمال، وما يكتسب القلب بعدها من الأحوال المؤثرة على حجب القلب عن رب العالمين، قال تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾ (الحج: ٥٣).

فإن تلف القلب يؤدى إلى تلف الإنسان كليا، وفقدان الدنيا والآخرة، وكان مثله كالذى تحدث القرآن عنه ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) ﴾ (الحج: ١١)، و﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴾ (المنافقون: ٣).

ومن هنا تأتى أهمية الحديث حول طاعة القلوب لعلام الغيوب لأن لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه.

والمعضلة الكبرى فى هذا القلب أن صاحبه لا يشعر بالمرض، إذ ليست له أعراض تظهر على الجسم.

لذا قد يزمن المرض ولا يدرى به صاحبه، قال تعالى: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾ (التوبة: ٨٧)، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾ (الإسراء: ٤٦)، و قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر: ٣٥)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: ٢٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المطففين: ١٤).

ومن هنا قام العلماء بدورهم في نشر الوعى الصحى، وتثقيف الناس فى هذا الميدان حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم ولا يؤخذوا على غرة ... وقد فعل علماؤنا ذلك.

وإذا كان أطباء هذا النوع من أمراض القلوب فى زمننا قلة، فإن أبواب الرحمة ما زالت مفتوحة تقدِّم الوصفات والعلاج لزوارها وتقوم بفحص عام لمن أراد ذلك، وبغير مقابل، ابتغاء وجه الله تعالى، كما تقدم له نشرات التوعية ... حتى يهتم بنفسه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ (الحديد: ١٦).

والخطر مسلط على القلب من ثلاث جبهات هي: **النفس، والشيطان، والفتن والذنوب**. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (الحج: ٥٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ

أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الروم: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (يوسف: ٥٢)، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٤).

فإن العمل السيئ مصدره عن فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له (حجب القلب عن رب العالمين)، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (البقرة: ٧٤)، وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (المائدة: ١٣)، وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الحج: ٥٣).

وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان، وركونه إلى عدوه الذى لا يفلح إلا من جاهره بالعصيان قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾ (النور: ٢١)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ (يس: ٦٠).

وختاماً:

فهذا جهدنا وكل شيء من عند الله، فهو الموفق، وهو المعين، فنسأله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه لا سمعة فيه ولا رياء، وأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع بعض حقه، وأن ينفع به، وأن يشرح به الصدور، ويُدْخِل به فى القلوب النور والطاعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

اللهم اجعل عملنا مقبولا، وسعينا مشكورا
وقِنا والمسلمين مُضِلاتِ الفتن ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ
إنك على ذلك قدير، وبالإجابة جدير
وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى الله تعالى
محمد محمود حماد

التمهيد

ويتضمن بيان مكانة القلب من حيث الصحة والمرض والقاعدة المؤثرة فى حركة العبد صلاحا أو فساداً .

ويمكن إيجاز الموضوعات فى الآتي:

الباب الأول:

١- التعريف بالقلب وأهميته.

٢- مكانة القلب .

٣- أهمية القلب .

٤- الدلالة الثلاثية لأحوال القلوب (الصحيح – القاسى – المريض) .

٥- الدلالة الثلاثية لحياة القلب.

٦- غذاء القلوب.

٧- القلب السليم هو ما سلم من ستة أدواء .

٨- الدلالة السباعية لصحة طاعة القلب.

٩- الحياة والنور أصل سعادة العبد .

١٠- حياة القلب بإدراك الحق.

١١- أسس وأركان قول القلب وعمله.

١٢- الدلالة الثلاثية لدعائم أعمال القلوب فى طاعة الله سبحانه وتعالى.

١٣- ثمرات طاعة القلب.

أ- الدلالة الثلاثية للثمرات الآخروية.

ب- الدلالة السباعية للثمرات الدنيوية.

١٤- طاعة القلب بين الإيجاب والسلب .

١٥- الدلالة الرباعية للتفاضل فى خضوع وطاعة القلب بين المؤمنين .

١٦- لوازم خضوع وطاعة القلب ومقتضياتها.

١٧- أركان خضوع وطاعة القلب.

١٨- درجات الناس فى خضوع وطاعة القلب.

١٩- تفاضل الإيمان فى القلوب تتضح من خلال وجوه عدة منها.

٢٠- الدلالة السباعية لسعادة للقلب .

٢١- سكينة القلب.

٢٢- العوامل المؤثرة فى حياة القلب .

٢٣- صلاح القلب .

الباب الثاني:

١- الدلالة الثلاثية لأسلحة شياطين الإنس والجن لاقتحام النفس البشرية .

٢- أبواب الشيطان إلى القلب.

٣- الدلالة السباعية لأبواب الشيطان.

٤- الدلالة الرباعية للسبل التى يسلكها الشيطان .

٥- الدلالة الثلاثية لمداخل الشيطان إلى الإنسان .

٦- أنواع الوسوسة فى صدور الناس .

٧- الدلالة الثلاثية لمجاهدة هؤلاء الأعداء .

٨- أدلة مرض القلب وصحته.

٩- الإحساس بمرض القلب .

١٠- الدلالة السباعية لمفسدات القلب وأسباب أمراضه.

١١- حجب القلب عن الرب تعالى.

١٢- الدلالة الثلاثية على الخير والشر فى التقلب والثبات للقلوب .

١٣- أمراض القلب .

١٤- الباطل يؤدى إلى تحريف الحق .

الباب الثالث:

١- لفظ القلب فى القرآن الكريم.

٢- لفظ الفؤاد ولفظ الصدر.

٣- أدلة أهل العلم أن العقل محله القلب.

٤- علاقة الفؤاد بالقلب.

الباب الأول

ويتضمن:

١- التعريف بالقلب وأهميته.

٢- مكانة القلب .

٣- أهمية القلب .

٤- الدلالة الثلاثية لأحوال القلوب (الصحيح – القاسى – المريض).

٥- الدلالة الثلاثية لحياة القلب.

٦- غذاء القلوب.

٧- القلب السليم هو ما سلم من ستة أدواء .

٨- الدلالة السباعية لصحة طاعة القلب.

٩- الحياة والنور أصل سعادة العبد .

١٠- حياة القلب بإدراك الحق.

١١- أسس وأركان قول القلب وعمله.

١٢- الدلالة الثلاثية لدعائم أعمال القلوب فى طاعة الله سبحانه وتعالى.

١٣- ثمرات طاعة القلب.

١٤- الدلالة الثلاثية للثمرات الأخروية.

١٥- الدلالة السباعية للثمرات الدنيوية.

١٦- طاعة القلب بين الإيجاب والسلب .

١٧- الدلالة الرباعية للتفاضل فى خضوع وطاعة القلب بين المؤمنين .

١٨- لوازم خضوع وطاعة القلب ومقتضياتها .

١٩- أركان خضوع وطاعة القلب.

٢٠- درجات الناس فى خضوع وطاعة القلب.

٢١- تفاضل الإيمان فى القلوب تتضح من خلال وجوه عدة منها .

٢٢- الدلالة السباعية لسعادة القلب .

٢٣- سكينة القلب.

٢٤- العوامل المؤثرة فى حياة القلب .

٢٥- صلاح القلب .

الباب الأول

١- التعريف بالقلب وأهميته :

قال الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النحل : ٧٨).

وقال الله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج : ٤٦).

الله تبارك وتعالى خلق الإنسان ، والإنسان له ظاهر وباطن ، وفى باطنه أكثر الأعضاء وأهمها القلب والكبد والمعدة .

ولفظ القلب يطلق على معنيين :

أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ؛ يدخل فيه الدم ، ثم يدفعه بواسطة العروق لتغذية البدن .

الثاني : لطيفة معنوية ربانية روحانية ، لها بذلك القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان .

وهو المخاطب والمطالب ، والمثاب والمعاقب ، ولهذه اللطيفة علاقة مع القلب الجسمانى .

٢- مكانة القلب :

القلب هو الملك المشغِّل لجميع آلات البدن ، والمستخدم لها ، فهو محفوف بها ، محشود ، مخدوم ، مستقر فى الوسط .

وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الروح الحيوانى والحرارة الغريزية.

وهو معدن العقل والعلم، والحلم والشجاعة، والكرم، والصبر، والاحتمال، والحب والإرادة، والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال. فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها، إنما هى جند من أجناد القلب.

فإن العين طليعته ورائده الذى يكشف له المرئيات، فإن رأت شيئاً أدته إليه، ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه، إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهى مرآته المترجمة للناظر ما فيه.

كما أن اللسان ترجمانه المؤدى لسمع ما فيه.

ولهذا كثيراً ما يقرن سبحانه فى كتابه بين هذه الثلاث، كقوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦) ﴾ (الإسراء: ٣٦).

وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾

(الأنعام: ١١٠)

وكذلك الأذن هى رسوله المؤدى إليه.

٣- أهمية القلب:

أمر القلب خطير، وأثره عظيم، وفى الكتاب والسنة على ذلك أدلة وبراهين، ومن تأملها ظهرت له الشواهد، وبرزت له المعالم، **ومن ذلك ما تتضمنه الأحوال التالية:**

أولاً: الاستقامة:

القلب هو الأساس والباعث، وفيه تبدأ الإرادات والخواطر، وتتحرك الدواعي، وعنه تنشأ أعمال الظاهر وأفعال الجوارح.

فقول القلب تصديقاً بالله ورسوله يترجمه اللسان نطقاً بالشهادتين، وعمل القلب محبة ورجاء وخوفاً تعبر عنه حركة الأعضاء استقامة على طاعة الله، وتنفيذاً لأمره جل شأنه.

ومن ثم فإن أصل الاستقامة استقامة القلب، كما في حديث أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه).

ولذا كان القلب كالملك للأعضاء، يملك معها الأمر والنهى، ولا تملك هى إلا الاستجابة والإذعان، والطاعة والالتزام.

يقول رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه النعمان بن بشير ﷺ: (ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب).

تضمن هذا الحديث الشريف أن القلب أصل، تتفرع عنه كافة أعمال الجوارح، وتتأثر به صلاحاً أو فسادًا.

فمتى رسخت فى قلب العبد معانى الطاعة، وتحقق فيه الإيمان واليقين، فصلحت حركاته وأفعاله، وتمكنت فيه المحبة والخشية والتوكل والإنابة، وامتلأ بتعظيم الله وإجلاله ورجائه والإعراض عما سواه جل وعلا، كان ذلك إيذانًا بانبعاث جوارحه إلى أعمال العبادة الظاهرة.

وحين يفسد القلب، وتستولى عليه الأهواء، والتعلق بغير الله، كانت العاقبة فساد حركات الجوارح، وانبعاث الأعضاء إلى ضد ما أمر به الله جل وعلا ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد جعل الله تعالى سلامة القلب معبراً للفوز فى الآخرة، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء: ٨٨ – ٨٩).

كما جعل الله جل شأنه القلوب موضع التمييز والاختبار فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وذلك يشير إلى أن القلب هو المخاطب على الحقيقة، وهو الأصل المقصود بالأمر والنهى، والأعضاء متفرعة عنه، مسخرة له، ترقب إرادته، وتتحرى قراره، فإذا أطاعت فهو المتمثل قبلها، وإذا عصت فهى متابعة لقصده فى المخالفة.

وقال سبحانه: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ (العاديات: ٩ – ١٠). وتحصيل ما فى الصدور بمعنى التمييز والإظهار لما تسره من الخير والشر.

ثانيا: الإيمان:

إيمان القلب وإخلاصه أصل فى قبول العمل الصالح، وبدونه لا نفع ولا ثمرة ولا قبول.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ (الإسراء: ١٩)، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ (الأنبياء: ٩٤)، ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ (غافر: ٤٠).

فلابد من شرط تقدم الإيمان أولاً، والمراد إيمان القلب وتصديقه، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، فمنَ لم يلتزم بقيد الإيمان القلبى يبقى غير مستحق للثمرات المذكورة.

ثالثًا: القلب هو الأصل فى المدح أو الذم:

يشتمل القلب على أعمال وأحوال يحمد عليها، كالخوف والرجاء، والتوكل والإنابة، والزهد والقناعة، والمحبة والتقوى، واللين والتواضع، والصبر والشكر، والإخلاص والرضا.

كما يشتمل على علل وأسقام يذم عليها، كالكبر والخيلاء، والقسوة والخيانة، والغضب والرياء، والهلع والجزع، والحسد والحقد، والغش والطمع، والسخط وكراهية الهدى.

** يقول الله تعالى فى معرض المدح للقلوب حين تصح:

- ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٢).
- ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣).
- ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (ق: ٣٣).

** ويقول تعالى فى معرض الذم للقلوب حين تموت:

- ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤).
- ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥).
- ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج: ٤٦).

والنصوص فى الثناء على طاعة القلب، وفى ذم أمراضه وعلله كثيرة جدًا فى الكتاب العزيز والسنة الشريفة.

وحين تتشابه القلوب فى الأحوال تتشابه الأعضاء فى الحركات والأقوال، كما قال الله جل شأنه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ (البقرة: ١١٨).

فقد جعلت الآية الكريمة محور التشابه فى القلوب، مع أن التشابه فى الأذهان هو ما يقع فى الظاهر مكشوفاً للعيان، مما يؤكد أن الظاهر ينبعث مما رسخ فى القلب.

فلما تشابهت قلوبهم فى كراهية الحق، ومعاندة الهدى، تشابهت أقوالهم وأفعالهم فى مواجهة المرسلين عليهم السلام.

رابعًا: القلب منبع الإيمان:

يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (النحل: ١٠٦).

وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات: ٧). أي: (زينه بتوفيقه فى قلوبكم، أى حسنه إليكم حتى اخترتموه).

وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ (المجادلة: ٢٢). أى جعل الإيمان فى قلوبهم، وثبته فيها بتوفيقه جل شأنه.

وقال تعالى فى حال المنافقين: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ ﴾ (المائدة: ٤١).

ففى الآية الكريمة تصريح بأن قلوب المنافقين خلت من الإيمان التى هى محله ومكانه.

وقال تعالى عن طائفة مخصوصة من الأعراب: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٤).

فقد أثبت لهم الإسلام، ونفى عنهم كمال الإيمان فى قلوبهم.

ومن ثم كان نطق اللسان غير ذى بال، إذا لم يتأسس على عقيدة صادقة فى القلب، كما هو حال المنافقين، الذين كشفهم الله بقوله سبحانه: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (الفتح: ١١)، ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (آل عمران: ١٦٧)، ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ (المائدة: ٤١). (أى لم يضمروا فى قلوبهم الإيمان كما نطقت به ألسنتهم).

ولما كان القول منهم غير مبنى على القلب واعتقاده، قيدته الآيات الكريمات بأنه نطق بمجرد الألسنة والأفواه على أساس.

ولذا أثبت الله سبحانه وتعالى علمه بما تنطوى عليه بواطنهم فقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (النساء: ٦٣).

هذا الإيمان الذى يحل فى القلب عُبّر عنه بالخير فى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (الأنفال: ٧٠).

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾

(الفتح: ١٨).

والمراد بما فى القلوب ثمرة الإيمان بالله ورسوله من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.

خامسا: القلب محل التقوى:

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحج: ٣٢).

تبين الآية الكريمة أن تعظيم شعائر الله، وهى أعلام الدين ومعالم العبادة الظاهرة، من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بالتقوى.

وإضافة التقوى إلى القلوب فى الآية يدل على أن أصل التقوى، وحقيقتها ومركزها، يكمن فى القلب، ثم تظهر آثاره على الجوارح استقامة على شرع الله جل شأنه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (الحجرات: ٣).

وهذه الآية الكريمة أيضاً تشير إلى أن أصل التقوى فى القلب.

ذلك أن الآية تثنى على الذين يخفضون أصواتهم فى مجلس رسول الله ﷺ، إجلالاً له وتوقيراً، وتخبر أن هؤلاء هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أى جعلها موضعاً ومستقرًّا للتقوى، خالصة لها، مختصة بها، كما يختبر المعدن من الذهب والفضة بالنار، حتى يصير صافياً من شوائبه، خالصاً مما يخالطه من غير أصله.

سادسًا: القلب موطن الهداية:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (التغابن: ١١). وهو أيضاً مقر الطهر والنزاهة من الشر والخبث.

قال الله تعالى عن أهل الكفر من المنافقين واليهود ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ (المائدة: ٤١).

وقال تعالى فى حق أمهات المؤمنين رضى الله عنهن: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

والمراد طهارة القلب ونقاؤه من الريبة والخواطر السيئة.

وفى المقابل هو محل الزيغ والميل عن الحق والهدى .

قال الله تعالى عن اليهود المكذبين بنبى الله موسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف: ٥). وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨).

إذاً الهداية إصابة الحق والتزام الهدى، والزيغ ميل وانحراف عنهما وهو مصدر الإثم، قال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾

(البقرة: ٢٨٣).

والإثم الفجور، أضيف إلى القلب هنا باعتبار أن الآية الكريمة تحذر من كتمان الشهادة، وهو أمر قلبى، وباعتبار تبعية الجوارح فى أفعالها للقلب وما تتجاذبه من إرادات.

سابعاً: القلب موضع الكفر والنفاق:

**** ومن الآيات الدالة على ذلك قول الله تعالى:**

● ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ (النحل: ١٠٦).

• ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

(التوبة: ٦٤).

• ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(التوبة: ٧٧).

• ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (الفتح: ١٢).

والمراد بالنفاق، زينه الشيطان وحسنه فى قلوبهم. ولذا ذكر بعض المفسرين فى قول الله تعالى: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ ﴾ (الهمزة: ٦ — ٧)، (أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك هو أنها موطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة).

ثامنًا: القلب مركز الفقه والعقل والانتفاع بالعلم:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج: ٤٦).

فقد ذم الله جل شأنه الكافرين فوصفهم بأنهم لا ينتفعون بقلوبهم فى العلم الذى يهديهم إلى توحيد الله ومعرفته، ويحقق لهم الإيمان واليقين، وفى ذلك دلالة على أن القلب محل العلم والفهم.

ويدل على أيضاً تخصيص القلب بالختم ونحوه فى مثل قول الله تعالى فى شأن الكافرين المعاندين: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (البقرة: ٧).

تاسعًا : القلب محل الارتياح والسعة :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ (الشرح : ١).

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ (الأنعام : ١٢٥).

عاشراً : القلب محل الطمأنينة والسكون :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ (الرعد : ٢٨).

حادى عشر : وهو محل القوة والثبات :

قال الله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ (هود : ١٢٠). وبالمقابل فالقلب محل الانزعاج والضيق.

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (الحجر : ٩٧).

﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ (النساء : ٩٠). أى ضاقت صدورهم كراهة قتالكم.

ثانى عشر : هو محل الرعب والرهبة :

قال الله تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١٥١). وقال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ﴾ (الحشر : ١٣).

ثالث عشر : هو مكان الحقد والحسد والعداوة :

قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ (الأعراف : ٤٣). وقال تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (الحشر : ١٠).

رابع عشر: موقع الندم والحسرة:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

(آل عمران: ١٥٦).

والمعنى: ليكون ذلك القول والظن منهم سبباً لاستقرار الغم والندامة والحسرة في قلوبهم، عقوبة من الله لهم، والمقصود في الآية المنافقون.

خامس عشر: القلب أيضاً محل وسوسة الشيطان وإلقاءاته:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ ﴾ (الناس: ٥).

سادس عشر: القلب مستقر الحب والميل والهوى:

قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ (التحريم: ٤). أي مالت عن الحق.

وقال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (الأنعام: ١١٣). أي تميل إلى زخرف القول من الباطل.

وقال تعالى على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (إبراهيم: ٣٧). أي تحن وتنزع إليهم وتريدهم وتميل إليهم.

وقال تعالى عن اليهود: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (البقرة: ٩٣). والمراد حب عبادة العجل، تمكن من قلوبهم حتى كأنهم شربوه فخالط بواطنهم.

٤- الدلالة الثلاثية لأحوال القلوب (الصحيح — القاسى — المريض):

أولاً : القلب الصحيح :

فالقلب الصحيح : هو القلب السليم الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء : ٨٨ - ٨٩).

**** وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك :**

أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره.

فسلم من خضوعه لما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته فى كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة الطاعة التى لا تصلح إلا لله سبحانه وتعالى وحده.

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت طاعته لله : إرادة ومحبة، وتوكلاً، وإنابةً، وإخباتاً، وخشية، ورجاء.

وخلص عمله لله، فإن أحب أحب فى الله، وإن أبغض أبغض فى الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، فهذه حقيقة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة.

ومن الآيات التى تشير إلى أنواع القلوب الصحيحة :

القلوب السليمة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء : ٨٩).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ (الصافات : ٨٤).

القلوب المطمئنة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد: ٢٨).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأنفال: ١٠).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (المائدة: ١١٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (النحل: ١٠٦).

القلوب الوجلة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الأنفال: ٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الحج: ٣٥).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

القلوب المخبتة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الحج: ٥٤).

القلوب المنيبة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (ق: ٣٣).

القلوب المربوط عليها :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ (الأنفال: ١١).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ (الكهف: ١٤).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (القصص: ١٠).

القلوب اللينة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الزمر: ٢٣).

القلوب الخاشعة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الحديد: ١٦).

ثانيا : القلب الميت (القاسي) :

وهو القلب الميت الذى لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالى إذا فاز بشهوته وحظه، رضى ربه أم سخط.

فهو متعبد لغير الله، حباً، وخوفاً، ورضاً، وسخطاً، وتعظيماً، وذلاً. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه.

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه والغفلة مركبه.

فهو بالفكر فى تحصيل أغراضه الدنيوية معمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مغمور. ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يُصِمُّه عما سوى الباطل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ (الحج: ٣).

ومن الآيات التى تشير إلى أنواع القلوب الميتة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ (النساء : ١٥٥).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (النحل : ١٠٨).

القلوب اللاهية :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الأنبياء : ١ - ٣).

القلوب القاسية :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (المائدة : ١٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (البقرة : ٧٤).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الحديد: ١٦).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأنعام: ٤٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الحج: ٥٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الزمر: ٢٢).

القلوب المتكبرة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (غافر: ٣٥).

القلوب المشمئزة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الزمر: ٤٥).

القلوب المرتابة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (التوبة: ٤٥).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (التوبة: ١١٠).

القلوب المنكرة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النحل : ٢٢).

القلوب الزائغة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (آل عمران : ٧ – ٨).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (التوبة : ١١٧).

القلوب الغافلة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الكهف : ٢٨).

القلوب العمي :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج : ٤٦).

القلوب المكنونة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنعام : ٢٥).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الإسراء : ٤٦).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الكهف : ٥٧).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (فصلت : ٥).

القلوب المطبوع عليها :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(الأعراف : ١٠٠ – ١٠١).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(محمد : ١٦).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(التوبة: ٩٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

(يونس: ٧٤).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (التوبة: ٨٧).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (غافر: ٣٥).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (المنافقون: ٣).

القلوب المختوم عليها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(الجاثية: ٢٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (البقرة: ٧).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الشورى: ٢٤).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأنعام: ٤٦).

القلوب المقفلة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد: ٢٤).

القلوب المرعوبة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأنفال: ١٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (آل عمران: ١٥١).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ (الحشر: ٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢٦).

ثالثا: القلب المريض:

وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين:

- داع يدعوه إلى رسوله والدار الآخرة.
- داع يدعوه إلى العاجلة.

وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً.

ومن الآيات التي تشير إلى أنواع القلوب المريضة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٠).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٥).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الأنفال: ٤٩).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المائدة: ٥٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (النور: ٥٠).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الحج: ٥٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾

(الأحزاب: ٦٠).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (محمد: ٢٠).

آية كريمة تجمع القلوب الثلاثة:

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن

رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج: ٥٢ – ٥٤).

فجعل سبحانه وتعالى القلوب فى هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلباً ناجياً.

- فالمفتونان: القلب الذى فيه مرض، والقلب القاسى.
- والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

٥- الدلالة الثلاثية لحياة القلب:

قصر الأمل ... وتدبر القرآن ... وتجنب مفسدات القلب.

فأما قصر الأمل، فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب.

فإنه يبعثه على تدارك الأيام، وانتهاز الفرص التى تمر مر السحاب، ويثير عزمات القلب إلى دار البقاء والخلود، ويزهده فى الدنيا، ويرغبه فى الآخرة كما قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأحقاف: ٣٥).

وأما تدبر القرآن، فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص: ٢٩).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء: ٨٢).

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وجمع الفكر فيه على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر، وتدله على مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صور الدنيا والآخرة، والجنة والنار.

وأما مفسدات القلب:

فكثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، وكثرة الشبع، وكثرة النوم، فهذه الخمسة أكبر مفسدات القلب.

فالقلب السليم يسير إلى الله تعالى والدار الآخرة، وهذه الخمسة مفسدات القلب تطفيء نوره، وتضعف قواه، قاطعة له عن الوصول إلى طاعة الله وما خلق له.

فإنه لا نعيم للقلب ولا لذة، ولا ابتهاج ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة.

كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز ولا فلاح إلا بجوار ربه في دار النعيم في الجنة الآجلة .

فله جنتان: لا يدخل الثانية منهما حتى يدخل الأولى، وهذه الأشياء الخمسة قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه.

غذاء القلب:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد: ٢٨).

وقال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٢).

٦- غذاء القلوب:

الله - عز وجل - جعل للقلوب نوعين من الغذاء:

الأول: الطعام والشراب الحسى، وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله .

الثاني: غذاء روحانى معنوى، خارج عن الطعام والشراب من السرور والفرح، والابتهاج واللذة، والعلوم والمعارف .

وبهذا الغذاء كان سماوياً علوياً، وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفلياً، وقوامه بهذين الغذائين .

وللقلب ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وله غذاء يصل إليه منها كحاسة السمع والبصر، وحاسة اللمس والشم والذوق، وارتباطه بحاستى السمع والبصر أشد من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواس.

وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما، واقترانه فى القرآن بهما أكثر من اقترانه بغيرهما .

بل لا يكاد يقرن إلا بهما أو بأحدهما كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النحل: ٧٨).

وتأثر القلب بما يراه ويسمعه، أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه، ولأن هذه الثلاثة هى أهم طرق العلم وهى السمع والبصر والعقل .

٧- القلب السليم هو ما سلم من ستة أدواء :

فهو سليم من الشرك ... سليم من الجهل ... سليم من الكبر .... سليم من الغفلة... سليم من حب الدنيا .... سليم من سيء الأخلاق .

القلب السليم: فهو قلب طاهر زكى، مملوء بالإيمان والتوحيد والعلم، والتواضع لربه، ولزوم ذكره، يحب الله والدار الآخرة، متجمل بمكارم الأخلاق .

فهذا القلب السليم إذا نظر الله إليه، رضى الله عنه وأحبه واجتباه، وأعانه على كل خير ومنع عنه كل سوء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

(الجمعة: ٤).

وإلى استفراغ المواد الفاسدة التى تعرض له بالتوبة النصوح والاستغفار، وإلى شغله بكل ما يورث القلب إيماناً ، ويزيده من العلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، فكل ذلك أغذية له .

والقلب السليم: هو الذى سلم من الغل والحقد ، والحسد والشح، وسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، وسلم من كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله.

فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا، وفى جنة فى البرزخ، وفى جنة يوم المعاد، حيث كمال النعمة، وكمال النعيم، ورؤية المنعم جل جلاله.

ولا تتم سلامته مطلقا حتى يسلم من سبعة أشياء:

- من شرك يناقض التوحيد.
- من بدعة تخالف السنة.
- سليم من الجهل.
- سليم من حب الدنيا.
- من شهوة تخالف الأمر.
- من غفلة تناقض الذكر.
- من نفس تناقض الصراط المستقيم.

٨-الدلالة السباعية لصحة طاعة القلب:

١. أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يدله عليه، ويذكرُه، ويذاكره بهذا الأمر.

٢. أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

٣. أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

٤. أنه إذا دخل فى الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرة عينه وسرور قلبه.

٥. أن يكون همه واحداً، وأن يكون فى الله.

٦. أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بما له ومنعاً.

٧. أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصحية والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنَّة الله فيه وتقصيره فى حق الله.

فهذه سبعة مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحى السليم، الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بطاعة الله يسكن ويطمئن إليه.

الكلمة الأخيرة فى طاعة القلب الصحيح:

هو الذى هَمُّه كله فى الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهَى إليه من كل حديث. وأفكاره تحوم على ما يرضيه ويحبه.

والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قُرَّة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ ﴾ (الفجر: ٢٧ — ٢٨).

فتصير الطاعة صنعته ذوقا لا تكلفا.

٩- الحياة والنور أصل سعادة العبد:

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حى ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله.

قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فجمع تعالى بين الأصلين: الحياة، والنور.

فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحَياؤه وعفّته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحِسن، وبغضه للقبيح .

فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات.

وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته فى نفسه.

فالقلب الصحيح الحى إذا عرضت عليه القبائح نَفَر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها : بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح،

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوى نوره وإشراقه، انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره، فآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح .

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين فى مواضع من كتابه العزيز : قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ (الشورى : ٥٢).

فجمع بين الروح الذى تحصل به الحياة، والنور الذى يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذى أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تَحيا به القلوب، ونور تستضيء به وتشرق .

كما قال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ (الأنعام : ١٢٢).

أى أو من كان كافراً ميت القلب، مغموراً فى ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حياً بعد موته، مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته؟

١٠- حياة القلب بإدراك الحق:

**** ولما كان فى القلب قوّتان:**

- قوة العلم والتمييز .
- وقوة الإرادة والحب.

كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته. فكماله باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق، ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل.

وباستعمال قوة الإرادة والمحبة فى طلب الحق ومحبته، وإيثاره على الباطل. فمن لم يعرف الحق فهو ضال. ومن عرفه وآثر غيره فهو مغضوب عليه. ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه.

وقد أمرنا الله – سبحانه وتعالى – أن نسأله فى صلاتنا: أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال، لأنهم أمة جهل. واليهود أخص بالغضب، لأنهم أمة عناد.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذين الأصلين فى غير موضع من كتابه، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٦). فجمع سبحانه وتعالى بين الاستجابة له والإيمان به.

ومنها قوله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

(البقرة: ١ – ٥).

وقال في وسط السورة: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (العصر: ١ – ٣).

١١- أسس وأركان قول القلب وعمله:

ولكل من قول القلب وعمله أسس وأركان:

أما قول القلب المتمثل فى علمه واعتقاده وتصديقه فإن شعبه وأنواعه كثيرة على التفصيل، لكن أركانه وأصوله مقررة فى حديث جبريل المشهور، والذى يتضمن سؤاله عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال ﷺ: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).

وهذا الجواب منه عليه الصلاة والسلام يثبت للإيمان ستة أركان، تضمنها القرآن الكريم فى أكثر من آية كريمة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (النساء: ١٣٦).

وفيما يلي إشارة إلى المراد بكل ركن منها:

١- الإيمان بالله جل وعلا هو التصديق الجازم بأنه تبارك وتعالى إله واحد في ربوبيته وألوهيته، موصوف بصفات الكمال، منزه عن العيب والنقص سبحانه.

٢- الإيمان بالملائكة هو التصديق الجازم بهم، وأنهم عباد لله مطيعون لأمره، قائمون بوظائفهم التي كلفهم الله - جل وعلا - بها .

٣- الإيمان بالكتب هو التصديق الجازم بكتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأنها من كلامه تبارك وتعالى، متضمنة للحق والهدى في شرعه ودينه جل شأنه.

٤- الإيمان بالرسل عليهم السلام هو التصديق الجازم بهم دون تفريق بينهم، وبأنهم صادقون فيما أخبروا به عن ربهم سبحانه، وفيما بلغوا من كتبه ورسالاته.

٥- الإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بيوم القيامة وما يشتمل عليه من البعث والحساب والجنة والنار.

٦- الإيمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن جميع الكائنات بقضائه وتقديره، وكل خير أو شر يحدث بإرادته وعلمه، ولا يكون شيء إلا بإذنه ومشيئته تبارك وتعالى.

هذه الأصول الستة يجب على العبد الإيمان بها على سبيل الإجمال، ثم على سبيل التفصيل فيما يصل إليه علمه من الكتاب العزيز وصحيح السنة الشريفة.

١٢- الدلالة الثلاثية لدعائم أعمال القلوب فى طاعة الله سبحانه وتعالى:

((المحبة، والخوف، والرجاء)).

ذلك أن العبادة لله تعالى تعنى غاية الحب والذل وكمالهما، والتذلل لله جل وعلا يتضمن خوفه ورجاءه، فإذا قارن ذلك ولازمه محبة لله سبحانه أثمر تحقيقاً للأسس والقواعد الرئيسة التى تحرك القلب فى طاعته لله تبارك وتعالى، إذ هو جل شأنه الإله الذى تؤلهه القلوب محبة ورجاء وخوفاً .

وعلى هذه الأركان الثلاثة تنبنى وتقوم كافة أعمال القلوب الأخرى، كالصبر والرضا، والزهد والشكر، والتوكل والإنابة، والحياء والإخلاص، والتضرع والخشوع، وغيرها، بل هذه الأركان هى مدار السير إلى الله - تعالى - بجميع مقامات الإيمان والإحسان.

وبزوال هذه الأركان لا يبقى فى القلب خضوع وطاعة لله أصلاً.

وبين هذه الأركان الثلاثة ترابط كبير، وتلازم وثيق، وقد جمع الله - تعالى - بينها فى قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧ ﴾ (الإسراء: ٥٧).

والمقصود باسم الإشارة عيسى بن مريم وأمه وعزير والملائكة عليهم السلام، ونحوهم ممن كان يعبدهم بعض طوائف المشركين بزعم التقرب بهم إلى الله تعالى.

والمعنى أن هؤلاء المعبودين هم أنفسهم يتجهون إلى الله - تعالى - بالعبادة، يبتغون القرب منه جل وعلا، ويرجون رحمته وثوابه، ويخافون سطوته وعقابه.

لمحات حول الأسس الثلاثة (المحبة - الخوف - الرجاء):

• **المحبة:**

وهى أوثق الأركان الثلاثة وأقواها، وأجلها وأعلاها، إذ هى فى مقام الأصل لأعمال القلب، والقاعدة لحركاته، والأساس لإراداته، وعنها تنشأ وتصدر كافة أفعال القلوب والجوارح فى دائرة العبادة لله - جل وعلا - بل هى الغاية القصوى، والمقصد الأعلى، الذى وجد القلب لتحقيقه وبلوغه.

وإذا تحققت المحبة وتمكنت فى القلب تبعها كل من **الخوف والرجاء**، ولازمها، وعاد إليها، وذلك باعتبار أن المحبة تجذب القلب إلى الله سبحانه، فيتقلب المحب حينئذ بين الخوف والرجاء:

الخوف: من فوات ما يطلبه من رضا ربه سبحانه وثوابه،

والرجاء: فى تحقق ما يطمع فيه ويأمله من ذلك، فيفر من محل الخوف ومصدره لينال مرغوبة ومراده.

ومن ثم يقبل العبد على ربه تبارك وتعالى، إلى سلوك الصراط المستقيم الموصل إلى محبوبه وهو الله جل شأنه، وعلى قدر تلك المحبة فى القلب وضعفها يكون السير فى طريق الاستقامة على أمر الله وشرعه سبحانه وتعالى.

ولذا كانت منزلة المحبة أعلى، ومقامها أرفع من منازل الخوف والرجاء. ومن المعتبر فى ذلك أن المحبة عبادة مرادة لذاتها، ولذلك تستمر وتبقى مع المؤمنين فى الجنة، بينما تزول عنهم عبادة الخوف، باعتبارها وسيلة مقصودة

لغيرها، كما قال جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ (يونس: ٦٢)، ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾ (الزخرف: ٦٨).

وقد فرض الله تعالى محبته على عباده وجعلها مقدمة على جميع المحبوبات، وتوعد من يقدم محبة غيره على محبته جل وعلا، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ (التوبة: ٢٤).

وأثنى تبارك وتعالى على عباده المؤمنين بوصف المحبة له فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: ٥٤).

كما وصفهم بشدة المحبة فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ (البقرة: ١٦٥).

وفى المقابل ذم كفار مكة وأشباههم بوصف المحبة للدنيا وتقديمها على محبة الله سبحانه، وذلك على وجه الإنكار عليهم، فقال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ (القيامة: ٢٠).

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ (الإنسان: ٢٧). كما ذم الله سبحانه وتعالى من يجعل مرغوبه ومحبوبه الذى يهواه إلها يطيعه، ويتبعه سائر حياته، ويقدمه على شرع الله تعالى. قال جل شأنه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٣).

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٣). وأنكر جل شأنه على اليهود الذين عكفوا على عبادة العجل، وتوجهت قلوبهم لمحبته من دون الله تعالى، ولذا وصفهم ﷻ بقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (البقرة: ٩٣).

والمعنى: (أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم). فلما تمكن حب العجل من قلوبهم، ولازمها وخالطها، عبدوه من دون الله تعالى.

وتوجه الذم والتوبيخ أيضاً للمشركين بالله - جل وعلا - في عبادة المحبة من دون الله كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

فالآية الكريمة تخبر أن هؤلاء الذين يحبون أوثانهم ومعبوداتهم المدعاة كحبهم لله (تعالى) هم في الواقع جعلوها أندادًا ونظراء لله جل شأنه، ومن ثم وقعوا في دائرة الشرك به سبحانه، بالتسوية بينه وبين الأوثان في العبادة.

**** وفي معنى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ قولان أوردهما المفسرون :**

- **الأول**: أن المشركين يحبون أصنامهم كما يحب المؤمنون ربهم سبحانه.
- **والثاني**: أن المشركين يحبون آلهتهم المزعومة كما يحبون الله تعالى.

ورجح بعض أهل التفسير القول الثاني باعتبار قول الله تعالى بعد ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ فالمؤمنون أعظم محبة لله - تعالى- ، لأنها محبة خالصة كلها له ﷻ، قائمة على التوحيد له سبحانه، بينما هي ليست كذلك عند المشركين.

• الخوف:

الخوف عبادة قلبية عظيمة، بل هي من أعلى منازل خضوع وطاعة القلب وأجلها، وأكثرها ثمرة ونفعاً، واشتمال قلب المؤمن عليها علامة على خضوع وطاعة ما فيه من الإيمان، كما أن مفارقته له علامة على خرابه .

** **وقد عرف الخوف بأقوال منها:**

●((عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال)).

●((توقع مكروه أو فوات محبوب)).

●((اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف)).

والأقوال متقاربة المعنى. وقد أمر الله - تعالى - عباده بالخوف، وأوجبه عليهم، وجعله شرطاً فى صحة إيمانهم، فقال تعالى:

●﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠).

●﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ (المائدة: ٤٤).

●﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧٥).

** **وأثنى سبحانه على أهله المتصفين به قال تعالى:**

●﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (الرعد: ٢١).

●﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٧).

●﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

** **وأمر رسوله ﷺ بإعلانه والجهر به، فقال تعالى:**

●﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥ ﴾ (الأنعام: ١٥).

وللخوف أسبابه ومحركاته فى قلب المؤمن، فقد يتذكر العبد ذنوبه فيخاف، وهذه مرتبة عظيمة، تؤهل المؤمن للتوبة والإنابة، وقد يتذكر العبد ربه، ويزداد علمه بأسمائه وصفاته وجلاله، فيهاب ويخاف ويخشى، وتلك مرتبة أعلى وأعظم.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨).

ولا ريب أن الخوف يُحمد حين يكون له أثره في الحيلولة بين العبد وبين معصية الله تعالى إلى طاعة الله والالتزام بشرعه، والترقي في مقامات الخضوع والطاعة. (إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات وطرد الغفلة من القلب).

• الرجاء:

ومقام الرجاء عظيم، إذ هو من أجل منازل الطاعة وأشرفها وأعلاها، يحدو قلب العبد إلى ربه تبارك وتعالى، ويطيب له السير في سبل الطاعة والإنابة، ويقوده إلى رضا الرحمن والخضوع لأمره، ويسوقه إلى منازل الآخرة ونعيمها ويبشره بحلاوة العاقبة، ويذكره بلذتها ومتاعها، ولولاه لما سار إلى الله أحد.

ولذا كان الرجاء وصفاً ثابتاً من أوصاف أهل الإيمان، أمرهم الله به، ومدحهم وأثنى به عليهم. بقول الله سبحانه:

• ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: ٥٦).

• ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

• ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ (الزمر: ٩).

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢١٨).

• ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (فاطر: ٢٩).

وأخبر سبحانه أن من رجاه ﷻ وقام بلازم ذلك الرجاء فإن الله تعالى سيحقق أمله، وسيوفيه ثوابه كاملاً وافياً. قال جل وعلا: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ﴾ (العنكبوت: ٥). وفى المقابل ذم الكافرين فوصفهم بعدم الرجاء فى ثواب الله، وعدم الطمع فى جنته.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (يونس: ٧ - ٨).

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النبأ: ٢٧ - ٢٨). والمؤمن فى مراحل سيره فى طريق الخضوع والطاعة فى أمس الحاجة إلى تتابع رجائه لربه تبارك وتعالى، إذ يرجو غفرانا لمعصية وتجاوزا عن سيئة، أو قبول طاعة وكتب حسنة، أو إقالة عثرة وعفوا عن خطيئة، أو دوام استقامة وحسن خاتمة، أو تنزل رحمة ورفعة منزلة عند الله سبحانه.

وحتى يتحقق اسم الرجاء فلابد من العمل بأسبابه، والسعى فى حصولها، وإلا أصبح الرجاء تمنياً أو غرورًا.

والعلاقة بين مقامى الرجاء والخوف علاقة تكامل وتلازم وترابط وثيق، ولذلك قد يطلق لفظ الرجاء ويراد به الخوف، كما فى قول الله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (نوح: ١٣). والمعنى ((مالكم لا تخافون لله عظمة)).

والقرآن الكريم مليء بالآيات التى تجمع وتقرن بين الرجاء والخوف، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

يقول الله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) ﴾ (الحجر: ٤٩ - ٥٠).

فدلت الآيتان الكريمتان على مقامى الرجاء والخوف.

وقد أثنى القرآن على المؤمنين بالوصفين معاً فى أكثر من آية كريمة.

يقول الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (السجدة: ١٦)، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ (الأنبياء: ٩٠)، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾ (الإسراء: ٥٧).

أي: (لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المعاصى، وبالرجاء يكثر من الطاعات).

ويقول سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) ﴾ (الزمر: ٩).

كما قرن القرآن بين هاتين العبادتين الجليلتين فى الأمر بهما والدعوة إليها وذلك فى قول الله - جل وعلا - : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (الأعراف: ٥٦).

حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه فى طرق الاستقامة والطاعة، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان.

هذا الاقتران بين المقامين فى الآيات الكريمات يدل على أن الأصل فى الخوف والرجاء أن يعتدلا فى قلب العبد، بحيث يتنقل بينهما بصورة متساوية، لا يترجح أحدهما على الآخر، مثله فى ذلك مثل الطائر فى حاجته إلى استواء جناحيه ليصح ويتم طيرانه، فإذا وقع النقص فى أحدهما حدث الخلل، وإذا انتفيا بالكلية صار الطائر إلى حتفه وموته .

١٣- ثمرات طاعة القلب

لطاعة القلب ثمرات عظيمة الشأن، وعواقب جليلة القدر، ونتائج كبيرة الأثر، فى حياة المؤمن العاجلة والآجلة .

والقرآن الكريم مليء بالدلائل والشواهد والإشارات إلى تلك الثمرات المباركات، اذكر بعضها :

أ- الدلالة الثلاثية للثمرات الآخروية :

١- النجاة من النار وأهوال القيامة .

أخبر الله سبحانه بأن من أخلص العبادة له سبحانه وتعالى سينجو من عذاب النار.

قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الصافات: ٣٨ - ٤٠).

فعباد الله المخلصون الذين أخلصوا قلوبهم لله فيما يفعلونه من أنواع الطاعات لا يذوقون العذاب، بل هم ناجون سالمون منه.

ووجل القلوب وخشيتها من ربها سبحانه وتعالى، ورقتها وخشوعها له جل وعلا، سبب فى الوقاية من النار. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الطور: ٢٥ - ٢٧).

فمن نعيم أهل الجنة لقاؤهم وتساؤلهم فيما بينهم، وتذاكرهم عن أحوالهم فى الدنيا وما حصل لهم فيها.

ومن ذلك ما اشتملت عليه الآيات الكريمات من تقريرهم بأن العلة فى نجاتهم من العذاب هو ما اتصفوا به فى حياتهم من الإشفاق، الذى هو أعلى مراتب الخوف وأقواها: ﴿ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الطور: ٢٦). (أى كنا فى دار الدنيا ونحن وأهلونا نخاف من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه).

ومن ثم جازاهم الله تعالى بأن أسبغ عليهم رحمته ومغفرته، وأجارهم من النار، وحال بينهم وبين العذاب: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الطور: ٢٧).

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على عباده الأبرار، فوصفهم بصفاء نياتهم وإخلاصها لله جل وعلا، وبالخوف منه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ (الإنسان: ٥ - ١٠).

تضمنت هذه الآيات الكريمات أن الأبرار: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ (الإنسان: ٧).

أى منتشرًا فاشيًا ممتدًا، والمقصود يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظيمة.

** كما تضمنت الآيات أنهم يعملون ما يعملونه من أنواع البر لسببين:

الأول: قصد ثواب الله تعالى، وطلب مرضاته، فنياتهم خالصة عن شوائب إرادة الدنيا.

الثاني: الخوف من المقام بين يدى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) ﴾ (الإنسان: ١٠).

وأصل العبوس قطوب الوجه من الضيق، وصف به يوم القيامة لأن الوجوه تعبس فيه. والقمطرير: الشديد الصعب الغليظ.

وفى اجتماع الوصفين دلالة على شدة ما يحصل فى ذلك اليوم من الأهوال والأمور العظام، وهو ما يخافه ويخشاه الأبرار. أى (إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه فى اليوم العبوس القمطرير).

ولما كان الخوف من الله تعالى وصفًا لأولئك الأبرار، كان جزاؤهم بسبب ذلك أن يقيهم ربهم شر ذلك اليوم الذى كانوا يخشونه، وأن يدفع عنهم ما فيه من الشدائد والأهوال، وأن يحفظهم من عذاب النار – رحمة منه جل وعلا: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾ (الإنسان: ١١).

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين الوقاية من الشر، وبين العطاء بحسن الوجوه وبياضها وجمالها، وفرح القلوب وبهجتها وسرورها.

٢- الفوز بالجنة ونعيم الآخرة:

قرر القرآن الكريم أن الذين ينتفعون فى الآخرة فيدركون سعادتها هم أصحاب القلوب السليمة، التى خلصت مما يعارض الطاعة لله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ (الشعراء: ٨٨ – ٨٩).

والمتصفون بإخلاص العبادة هم الموعودون بالجنة وما فيها من العطايا والكرامة والنعيم.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) ﴾ (الصافات: ٤٠ – ٤٣).

ووُعِد بالجنة أيضًا من تذكر وقوفه بين يدى الله يوم القيامة للسؤال والحساب، فأوجد ذلك فى قلبه خوفًا وخشية، أثمرت انتهاء عن المعصية، وإقبالاً على الطاعة.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾ (النازعات: ٤٠ ـ ٤١).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ (الرحمن: ٤٦).

وزيادة فى التكريم تقرب الجنة للمتقين، أصحاب القلوب الوجلة المنيبة، التائبة المخلصة المقبلة على الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾ (ق: ٣١ – ٣٣).

وتضمنت الآيات الكريمات وصفهم بخشية الرحمن بالغيب. وقيل إنهم يخافون الله ويخشونه وهم لم يروه جل وعلا، إشارة إلى عظم إيمانهم.

وقيل إن المراد خشيتهم لله سبحانه وتعالى فى السر والخلوة، حين لا تراهم أعين الناس، إشارة إلى عظم إخلاصهم.

وكلا القولين محتمل، والجمع بينهما ممكن.

هؤلاء الخائفون المنيبون جازاهم الله تبارك وتعالى بالخلود فى الجنة، سالمين من العذاب والآفات، آمنين من الهموم، يلقون فيها من النعيم ما يشتهون، ويجدون فوق ما يطلبون ويأملون، مما لا يخطر لهم على بال.

قال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (ق: ٣٤ — ٣٥).

هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه

وخشية الله جل شأنه هى الطريق الموصلة إلى ما هو أعظم جزاء من خلود الجنان: رضا الرحمن سبحانه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (البينة: ٧ — ٨).

أما الصابرون على الالتزام بأمر الله، فقد وعدهم الله سبحانه بحسن الجزاء، وطيب العاقبة، وتحية الملائكة وإلقاء السلام.

قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الرعد: ٢٣ — ٢٤).

(تدخل عليهم الملائكة ، للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين، مهنئين بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام).

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الإنسان: ١٢).

(أى بسبب صبرهم أعطاهم وبوأهم جنة وحريرًا، أى منزلاً رحبًا، وعيشًا رغدًا، ولباسًا حسنًا).

وذكر سبحانه وتعالى أن الصابرين على المكاره والابتلاء والأذى فى سبيل الله وإقامة شرعه، هم الفائزون فى الآخرة بالكرامة والنعيم .

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (المؤمنون: ١٠٩ — ١١١).

ولما أورد القرآن الكريم صفات عباد الرحمن قرر فى ختامها أن صبرهم على مشقة تلك التكاليف، وتحملهم عناء فعل الصالحات وترك الشهوات المحرمات، هو السبب فى نيلهم المنازل الرفيعة، والدرجات العالية فى الجنة.

قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (الفرقان: ٧٥ — ٧٦).

أى (من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة بفضل الله ورحمته).

٣- عظم الثواب واستمراره:

وعد الله سبحانه وتعالى أهل الخشية والإخبات، والتوكل والصبر، وغيرها من أعمال طاعة القلوب، بالثواب والأجر العظيم، وذلك فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (الملك: ١٢).

وقول الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ (الحج: ٣٤ — ٣٥).

وقول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ (البقرة: ١٥٥).

وقول الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٩٦﴾ (النحل: ٩٦).

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ (الزمر: ١٠).

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾ (النحل: ٤١ – ٤٢).

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ (العنكبوت: ٥٨ – ٥٩).

ومن أبرز أعمال القلب المؤثرة في الأجر: إخلاص النية لله وحده، فإن هذا الإخلاص فاعل في استمرار الثواب، حتى في حال تأثر العمل الظاهر بعارض يؤثر على تمامه وكماله، ما هو خارج عن إرادة العبد.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٠٠).

أي (من يخرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل عند الله ثواب من هاجر).

وعلى الهجرة يقاس كل عمل صالح، يحبس المؤمن عن القيام به عذر مانع، فإن الله تعالى برحمته يبلغه أجر العاملين، بصلاح نيته وصدق مقصده.

ب- الدلالة السباعية للثمرات الدنيوية:

أولا: العصمة من إغواء الشيطان وتسلّطه.

يأمر الشيطان بالكفر، ويزين المعصية، ويحض على الفجور، ويلقى بالشبهة (وذلك لإظهار الباطل فى صورة الحق) على الإنسان، فيفتنه عن الحق، ويجذبه إلى الشر والضلال والباطل.

لكن القلب العابد لله تعالى، وقد عمره الإيمان الجازم والطاعة، والتوكل الواثق، يبقى محفوظًا بإذن ربه من الاستسلام لتسلط الشيطان واستيلائه، والاستجابة لوساوسه وإلقاءاته، والتأثر بشبهاته وإغراءاته.

يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) ﴾ (النحل: ٩٨ – ٩٩).

(فالذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله،لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم، فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون، لكنهم لا يستسلمون، فيطردون الشيطان عنهم، ويثوبون إلى ربهم من قريب).

ذلك أن التقوى حين تعمر قلب المؤمن تبعثه إلى التذكر لوعد الله ووعيده، والتفكر فى أمره ونهيه، فيبصر الحق والهدى، ويدرك كيد الشيطان، فيقطع عليه وساوسه، ويلحظ طيفه، ويميز خطراته وخطواته فيتباعد عنها.

يشهد لهذا المعنى قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ (الأعراف: ٢٠١) (من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان).

أي: (القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢). فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان).

وقد اعترف إبليس بأن لا قدرة له على إضلال عباد الله المخلصين، أو التمكن منهم، والتلاعب بهم فقال ما حكاه القرآن: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص: ٨٢ - ٨٣).

ومن كانت هذه صفتهم فليس للشيطان عليهم من سبيل في الإغواء، بتزيين شهوة، أو إلقاء شبهة.

ثانيا: التباعد عن الآثام والإقبال على الطاعات:

ذلك أثر آخر من آثار التزام القلب بطاعة الله سبحانه، وتنقله في منازلها، يتمثل في توفيق الله تبارك وتعالى لعبده المؤمن، في دائرة المعصية كرهًا ومباعدة، وفي دائرة الطاعة إقبالاً ومحبة.

ومما يشهد لذلك ما أخبر الله تعالى به من صرف المعصية عن نبيه يوسف عليه السلام حين أخلص العبادة لله سبحانه، فأخلصه الله تعالى لطاعته واصطفاه.

يقول جل وعلا: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف: ٢٤).

والمعنى أن تحقيق يوسف عليه السلام للإخلاص في طاعته لربه سبحانه كان علة لصرف السوء والفحشاء عنه عليه السلام.

وهذه الآية الكريمة وإن كانت في شأن نبي الله يوسف عليه السلام إلا أنها تتضمن دلالة عامة على أن العبد إذا أخلص الدين لله سبحانه، كان ذلك حافظًا له من الذنوب والمعاصي.

كذلك أخبر القرآن بأن هناك أعمالاً جليلة لا يوفقّ لها إلا من غمر الصبر والطاعة قلوبهم وتمكّن منها.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ (فصلت: ٣٤ — ٣٥).

والمقصود أن هذه الصفة الكريمة لا يعطاها ولا ويوفق لها إلا أهل الصبر والطاعة. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾ (المؤمنون: ٥٧ — ٦١).

ما يشير إلى أن خشية الله تعالى إذا استقرت فى القلب كانت حجابًا يحجز العبد عن المعصية. (لأن القلب إذا امتلأ من الخوف أحجمت الأعضاء جميعها عن ارتكاب المعاصى، وبقدر قلة الخوف يكون الهجوم على المعاصي).

ثالثا: الرعاية والكفاية والتأييد:

وعد الله تعالى من توكل عليه بالرعاية والكفاية فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ (الطلاق: ٢ — ٣)، والحسب بمعنى الكفاية، أى فهو كافيه.

**** فالآية الكريمة تشتمل على شرط وجزاء :**

أما الشرط فهو تحقيق التوكل من العبد على ربه سبحانه، وثقته به، وتفويض أموره إليه، وإخلاء القلب من الاعتماد على سواه.

وأما الجزاء فهو أن يكلأ الله تبارك وتعالى عبده المؤمن، ويقضي حاجته، ويكفيه ما أهمّه – فضلاً منه سبحانه ورحمة .

كما وعد جل وعلا الصابرين على مشقة التكليف وألم الابتلاء بالمعية الخاصة، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

وقال سبحانه: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٤٩). وهى معية الله لعبده بالحفظ والإعانة، والنصر والتأييد والرعاية.

وقرن سبحانه بين الصبر والتقوى، وجعلهما شرطاً لتنزل النصر والعون الإلهى، وذلك فى قوله جل شأنه: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾
(آل عمران: ١٢٥).

كما ضمن سبحانه لمن يحقق الصبر والتقوى بالحماية من كيد المنافقين والسلام من الضر المترتب على مكرهم فقال تعالى ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

وقد أحكم الله تبارك وتعالى وعده لبنى إسرائيل بالنصر والتمكين فى الأرض، لمّا صبروا على التمسك بدين الله سبحانه، وعلى الاستجابة لدعوة نبى الله موسى عليه السلام، فى مواجهة فرعون وكيده وأذاه .

يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

(والمعنى نفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة، بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من فرعون وقومه).

وقد اشتملت قصص الأنبياء فى القرآن على إعلان الرسل عليهم السلام توكلهم على الله وحده، وصبرهم على كيد الظالمين وإيذاء المستكبرين: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (إبراهيم: ١٢)، فأحكم الله جل شأنه وعده لرسله عليهم السلام بالنصر والتأييد وإهلاك الظالمين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (إبراهيم: ١٣ – ١٤).

وتتضمن هاتان الآيتان تقريراً بأن اتصاف المؤمنين بوجل القلوب من ربها سبحانه، وخوفها وخشيتها من عقابه، سبب للنصر والمعونة والتأييد من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (إبراهيم: ١٤).

والإشارة فى (ذلك) إلى ما اشتملت عليه الآية من الوعد بإهلاك الظالمين والتمكين للمؤمنين .

والمقصود أن النصر ملازم للصبر لا ينفك عنه، فإذا صبر المؤمنون على التكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا، وصبروا على قضاء الله وبلائه، فهم موعودون بالنصر فى مواجهة الهوى والشيطان، وفى مواجهة من يقاتلهم من أعداء الإسلام.

وأما تلازم الفرج مع الكرب فالمقصود أن المؤمن الصادق حين يشتد الكرب يتمحّض فى قلبه التوكل على ربه، والثقة فيه، والاعتماد عليه، والانكسار بين يديه، فيكفيه الله ما أهمّه، ويفرّج عنه كربته.

رابعا: محبة الله تعالى وثناؤه:

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب المتصفين بالصبر على أداء الفرائض والطاعات، والصبر عن المعاصى والسيئات، والصبر على المصائب والابتلاءات.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ (آل عمران: ١٤٦).

وأخبر سبحانه أنه يحب من اعتمد عليه، ووثق به، وفوض أموره إليه، ورضى بحكمه، واستسلم لقضائه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وقرن سبحانه بين الصبر والتوكل فى سياق الثناء على المؤمنين المتصفين بهما.

قال تعالى ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (العنكبوت: ٥٨ — ٥٩).

وأثنى سبحانه على من غشيت قلوبهم معانى الخشية والإيمان، والوجل والإشفاق، واليقين والإخلاص، ووصفهم بالمسارعة والسبق إلى الخيرات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ (المؤمنون: ٥٧ — ٦١).

كما أثنى تبارك وتعالى على الخاشعين الموقنين، الذين ذلت قلوبهم لله سبحانه، وخضعت له واستكانت، وآمنت بلقائه، وصدقت بوعده ووعيده، فخفت فى حقهم التكاليف، وسهلت عليهم سبل الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (البقرة: ٤٥ – ٤٦).

والضمير فى قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾. يعود إلى الصلاة كما قال عدد من المفسرين. والمعنى أن الصلاة ثقيلة إلا على من خشع قلبه، وأيقن بأنه راجع إلى ربه وملاقيه للحساب والجزاء.

وفى ذلك ثناء بالغ على أهل الطاعة والخشوع واليقين. وحين يستشعر القلب حبّ الله تعالى وصفاته سبحانه وتعالى كان ذلك سبيلاً إلى محبة الله سبحانه لعبده.

خامسا: الإمامة والقيادة:

هذه الثمرة من ثمرات طاعة القلب مستفادة من قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (السجدة: ٢٤).

والضمير فى ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى بنى إسرائيل، والمعنى: جعلنا منهم قادة ورؤساء يُقْتدى بهم فى الخير، يدعون إلى شريعة التوراة المنزلة على نبى الله موسى عليه السلام، ويكونون سببًا فى هداية الناس إلى دين الله سبحانه.

**** ثم ذكرت الآية الكريمة أن توفيقهم لذلك المقام الرفيع والمرتبة العالية كان لاتصافهم بأمرين:**

الأول: الصبر: ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ ، وهو يشمل الصبر على تكاليف الشرع أمرًا ونهيًا، كما يشمل الصبر على أقدار الله وبلائه، ومن ذلك تحمل الأذى فى سبيل الدعوة إلى دين الله تعالى.

الثاني: اليقين: ﴿ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، والمراد التصديق الجازم بما نزل من عند الله سبحانه من الحق، والعلم التام الذى لا يداخله شك ولا ريب.

ومع نزول هذه الآية فى شأن بنى إسرائيل، لكن مضمونها ودلالتها عامة، تقرر أن الالتزام بالصبر، والثبات على اليقين، سببان يهيئان المؤمن ليكون من أئمة الهدى والخير، الذين يقتدى بهم الناس ويهتدون. (وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس) وقيل من أعطى الصبر واليقين جعله الله إماما فى الدين.

وإذا استقر الصبر واليقين فى قلب المؤمن وتمكنا فيه نجا بإذن الله من فتنة الشهوة والشبهة، إذ بالصبر يدفع الشهوة، وباليقين يحارب الشبهة، فسلامة الدين بتوفيق الله تعالى منوطة باقتران الأمرين فى القلب.

سادسًا: السرور والنعيم والفرح والطمأنينة:

إن القلب إذا استقرت فيه طاعة الله تعالى كان ذلك طريقًا له إلى الطمأنينة والسرور.

وكلما تمكنت تلك الطاعة فى القلب وازدادت كلما انتقل المؤمن إلى درجة أعلى من الشعور بالفرح والأنس والارتياح. ولذا يجد المؤمنون فى آيات القرآن سرورًا ونعيمًا قلبيًا.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٤).

أى يسرون ويفرحون.

والمراد أنهم يجدون فى كلام الله تعالى بغيتهم، ويدركون فيه محبوبهم، فيحصل لهم بذلك لذة ونعيم وفرح وسرور.

وما فى القلوب من الصدق والإخلاص يستوجب لها الطمأنينة بفضل من الله سبحانه وتعالى.

ذلك ما تضمنه قول الله تعالى فى سياق الثناء على الصحابة رضى الله عنهم، والذين بايعوا رسول الله ﷺ يوم الحديبية على القتال والثبات: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الفتح: ١٨).

أى علم ما فى قلوبهم من الصدق والصبر والإخلاص، والطاعة والعزم على الوفاء، فربط على قلوبهم وأنزل عليها الطمأنينة والثبات، والسكون والاستقرار.

سابعًا: الاهتداء والانتفاع بالمواعظ:

حين يكون العبد مؤمنًا بالله، موقنًا باليوم الآخر، وحين تنمو فى قلبه معانى الطاعة والخوف والرهبة، والصبر والإنابة، وغيرها من أعمال القلوب، فإن من عواقب ذلك إكرام الله جل شأنه لعبده بالهداية والتسديد، والتوفيق لقبول الحق، والاستجابة للمواعظ، والتأثر بالدلائل، والانتفاع بالتذكير. هذا ما يشير إليه القرآن الكريم فى مواضع كثيرة.

**** ومن ذلك قول الله تعالى فى سياق تقرير بعض الأحكام:**

يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (البقرة: ٢٣٢).

يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (الطلاق: ٢).

تبين الآيتان الكريمتان أن الذى يمتثل للأحكام، ويأتمر بها، ويتفاعل معها، ويرضى بمضمونها، هو من آمن قلبه بالله سبحانه وتعالى، وصدق بشرعه، وأيقن بالبعث، وخاف حساب الآخرة.

ومن ثم فإن المتصفين بذلك هم المنتفعون حقيقة بالآيات القرآنية، يتقبلونها، وتخشع قلوبهم لها، ويتعظون بمحتواها. ويسارعون إلى الاحتكام لما تشتمل عليه من شرائع الله سبحانه، إجلالاً له، وخوفًا من عقابه تبارك وتعالى.

ذلك أن المؤمنين ذوى القلوب الحية، الوجلة المنيبة، هم الذين تجدى فيهم أساليب التذكير، وتؤثر فيهم أدواته ووسائله، كما قال سبحانه وتعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الذاريات: ٥٥).

وما تضمنته هذه الآية من تخصيص المؤمنين بالتذكير هو باعتبار أنهم المنتفعون بالذكرى، القابلون لها، المستفيدون منها، الذين تزيد بالموعظة بصيرتهم، ويقوى بالتذكير يقينهم. (أى إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة).

قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ (طه: ٢ — ٣).

أى (ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أى لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه، والتذكرة الموعظة التى تلين لها القلوب فتمتثل أمر الله وتجتنب نهيه، وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم لأنهم هم المنتفعون بها).

وقال سبحانه: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ ﴾ (الأعلى: ١٠). فى هذه الآية الكريمة دلالة على أن الخشية مستلزمة للتذكر والاتعاظ.

أى (لا يتذكر بذكراك إلا من يخاف، فإن الخوف حامل على النظر فى الذى ينجيه مما يخافه، فإذا نظر أداه النظر والتذكر إلى الحق، وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون).

وهذا المعنى هو المفهوم أيضًا من مثل قول الله تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ (ق: ٤٥) ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝٤٥﴾ (النازعات: ٤٥)، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ (فاطر: ١٨). ففى هذه الآيات تخصيص لمن ينفعه الإنذار ويتأثر به، والمعنى إنما تنفع بإنذارك أهل الخشية فكأنك تنذرهم دون غيرهم لمكان اختصاصهم بالانتفاع.

وفى مواضع أخرى من القرآن الكريم يبين الله سبحانه أن المتصفين بالإنابة والخشية ونحوهما يتأثرون بالدلائل ويتعظون بالآيات الكونية والقرآنية.

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ (ق: ٦ — ٨).

فهذه الآيات تتضمن جملة من دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى ووحدانيته، وفى خاتمتها بيان بأن فى هذه الدلائل عبرة وعظة، وبصيرة وذكرى، يستفيد منها ويتعظ بها أهل الإنابة. ومشاهدة خلق السماوات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى خاضع خائف وجل رجَّاع إلى الله سبحانه وتعالى.

وفى هذا المعنى أيضًا يقول الله جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ (سبأ: ٩).

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (غافر: ١٣). فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات أعظم لأن المنيب مقبل إلى ربه، وقد توجهت إرادته وهماته لربه ورجع إليه فى كل أمر من أموره فصار قريباً من ربه.

١٤- طاعة القلب بين الإيجاب والسلب:

أوجد الله تعالى القلب ليكون خاضعاً له سبحانه، متوجها إليه بالتوحيد والتعظيم والإرادة، والخوف والرجاء والمحبة، فإذا تحققت هذه الغاية الشريفة كانت وسيلة القلب إلى إدراك إصلاح ونيل الفلاح والسعادة.

ولقد كان من رحمة الله جل شأنه، أن فطر الناس على ذلك المقصود العظيم، حين جعل الأصل فى قلوبهم معرفة ربهم تبارك وتعالى والإقرار به، ومحبته وعبادته والإنابة إليه، وهيأ تلك القلوب للعلم به جل وعلا، وقبول دينه، وتلقى حكمه، والاطمئنان إلى الحق فى شرائعه التى جاء بها الرسل عليهم السلام تكميلاً وتتميماً للفطرة، وتقريرًا وتثبيتًا لها .

يؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم: ٣٠).

(من لم يعبد مخلصاً له الدين فلابد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله، وهو فى الحقيقة عابد للشيطان، فكل واحد من بنى آدم إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان).

ولذلك حذر القرآن الكريم من عبادة الشيطان وطاعته باعتبارها مضادة لعبادة الرحمن جل شأنه، وعليه تتأسس كل عبادة باطلة.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(يس: ٦٠ - ٦١).

أي: (عبادة الشيطان هي طاعته والانقياد لإغوائه). وكان من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾

(مريم: ٤٤).

ذلك أن عبادة الأصنام والكواكب وغيرهما هي في حقيقتها أثر من آثار طاعة الشيطان في الالتزام بدين مخالف ومنهج باطل، وذلك هو المعنى المقصود من لفظ العبادة .

فإشراك الشيطان مع الله تعالى في العبادة هو شرك في الطاعة والإتباع لما يدعو إليه مما يخالف شرع الله جل وعلا.

وحتى من يعبد الصالحين والملائكة في الظاهر إنما هو في الحقيقة عابد للشيطان الذى حسَّن ذلك لهم وأمرهم به، فأطاعوه من دون الله.

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (سبأ: ٤٠ - ٤١).

والمراد أن: (الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة).

وقد أثبت الله جل وعلا هذه الحقيقة فى حكمه على المشركين وهم يعبدون غيره سبحانه، وذلك فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾ (النساء: ١١٧).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النمل: ٢٤).

أي: (أن من اتبع تشريع الشيطان مؤثراً له على ما جاءت به الرسل فهو كافر بالله عابد للشيطان، متخذ الشيطان ربًا).

ومن أنواع الطاعة السلبية للقلب، والمتفرعة عن طاعة الشيطان، طاعة أهواء النفس ومراداتها، وشهواتها ومحبوباتها، المخالفة لهدى الله سبحانه، فيطلبها القلب، ويتشبث بها، ويسعى فى القصد إليها، مقدمًا إياها على مراد الله ومرضاته.

يقول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٣ - ٤٤).

وذلك يتحقق حين يكون مراد النفس وما تستحسنه وتميل إليه، هو الإله الذى يأمر فيطاع، وينهى فيستجاب له، من دون أمر الله جل وعلا ونهيه.

١٥- الدلالة الرباعية للتفاضل فى خضوع وطاعة القلب بين المؤمنين:

• أولا: يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (فاطر: ٣٢).

تشتمل الآية الكريمة على درجات المؤمنين ومراتبهم باعتبار موقفهم من الحسنات والسيئات فعلاً وتركًا، فهم بين ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات.

•ثانيا: يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

تقرر الآية الكريمة أن من أخص أوصاف المؤمنين عظم محبتهم لله جل وعلا يوحدونه بها ولا يشركون فيها أحدًا سواه سبحانه، وفى قوله (أَشَدُّ) دليل على تفاوتهم فى المحبة.

والمؤمن الصادق يعمل على الترقى فى مقام المحبة لله تبارك وتعالى، والتدرج فى مراتبها ومنازلها، ليصل إلى كمالها وتمامها، بحيث تستولى على القلب، وتحكم على الأعضاء والجوارح، وحينئذ يتحقق الإيمان والطاعة.

•ثالثا: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

تبين الآية الكريمة أن التقوى هى ميزان التفاضل بين الناس، فمن حازها كان أرفع منزلة، وأعظم قدرًا، وكلما تمكنت التقوى من القلب، الذى هو منطلقها ومركزها، ثم ترجمتها الجوارح استقامة وامتثالاً، واجتهد العبد فى تحقيق ذلك، كانت العاقبة لصاحبها نيلاً لمرتبة أعظم وأجل، وحصولاً على مقام أعلى وأكرم عند ربه تبارك وتعالى .

•رابعا: يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (الأنفال: ٢).

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) ﴾ (التوبة: ١٢٤).

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ (المدثر: ٣١).

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (الفتح: ٤).

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

هذه الآيات الكريمات وما يماثلها فى القرآن الكريم تدل صراحة على أن ما فى القلب من الإيمان يتفاوت ويتفاضل، ويزيد وينقص، ويقوى ويضعف، بحسب أحوال المؤمنين.

١٦- لوازم خضوع وطاعة القلب ومقتضياتها:

إن خضوع وطاعة القلب تقتضى خضوع الجوارح وتستلزمها ولا ريب.

إذ لا يمكن أن يكون القلب مؤمنًا بالله تعالى، موقنًا بالآخرة، مصدقاً برسول الله ﷺ، يمتلئ محبة لله تعالى وتقوى، ورجاء وخوفاً، وإنابة وتوكلاً، وصبرًا وخشوعًا، ثم لا يظهر لتلك الأعمال القلبية أثر فى ظاهر عمل الإنسان وما تفعله جوارحه، لا يتصور ذلك أبدًا ما دامت، والموانع منتفية.

إن الإيمان فى القلب يقتضى العمل الصالح، وإرادة الآخرة تستدعى السعى لها، والمحبة تستلزم الأتباع، والرجاء يبعث على الطاعة، والخوف يصد عن المعصية، وما فى القلب من الخشوع يظهر على البدن، وما فيه من التقوى يُثمِر تقوى الجوارح، وهكذا القول فى جميع أعمال وطاعة القلوب.

ولذا جعل رسول الله ﷺ صلاح القلب أساساً لصلاح الجوارح فقال ﷺ: (ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب) .

فالقلب هو المركز لعمل البدن، وما يفعله البدن أو يتركه فأصله مستقر بالقلب، ثم تظهر آثاره على الجوارح عملاً بمقتضاه خيراً أو شراً.

فإذا صلح القلب واستقام، وسلم من الأمراض والآفات، انبعث الأعضاء إلى الطاعة، وتحركت الجوارح بالصالح من العمل، وتباعدت عن السيئات، إذ الأعضاء جنود مطيعة للقلب، تنفذ أمره ولا تخالفه.

ومن ثم فإن خضوع الجوارح هى اللازم والمفضى لطاعة القلب إذ أنه ما يستقر فى القلب من الصلاح والاستقامة لا بد أن يظهر مقتضاه على سكن وطمأنينة القلب وصدقه العمل.

من آيات الكتاب العزيز التى تشير إلى اقتضاء طاعة القلب خضوع الجوارح:

● أولا: يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ (البينة: ٧).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ (المائدة: ٩).

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (البقرة: ٢٥).

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ (طه: ٧٥).

فهذه الآيات الكريمات، ومثلها كثير فى القرآن الكريم، يقترن فيها العمل الصالح بالإيمان، ويتصل به للدلالة على العلاقة الوثيقة بينهما، وأن أحدهما لا ينفصل عن الآخر، فلا يكفى إيمان القلب حتى يجتمع معه مقتضاه من العمل الصالح، وبهما معا ينال المؤمن الجنة برحمة الله جل وعلا، فالإيمان أصل، والعمل الصالح لازم له، به يتحقق صدق خضوع وطاعة القلب، إذ يمتنع أن يكون الإنسان مؤمناً بقلبه إيماناً كاملاً، مصدقاً تصديقاً تاماً، ثم لا يكون لذلك أثر فى الظاهر، يتمثل فى عمل الصالحات، وأداء الواجبات بالجوارح الظاهرة، إذ أن ما يستقر فى القلب من الإيمان لا يمكن أن يتخلف موجبه ومقتضاه من صلاح الظاهر، (لذلك من كان معه إيمان حقيقى فلا بد أن يكون معه من الأعمال بقدر إيمانه).

● ثانيا: يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ (الأنفال: ١). أي: إن كنتم من أهل الإيمان حقيقة فصدقوا ذلك الإيمان بالقيام بمقتضياته من طاعة الله سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، إذ الإيمان يستلزم تلك الطاعة.

يقول جل وعلا: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ (النور: ٤٧).

وقد رد الله تعالى دعوى الإيمان فى حق من يرفض شريعة الله، ويأبى الانقياد لها والالتزام بأحكامها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ (النساء: ٦٠).

أى (هذا الإنكار من الله تعالى على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء السابقين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله).

ولذا قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٥).

فالآيات تستدل بعمل الظاهر من التحاكم إلى شرع الله تعالى على عمل الباطن من الإيمان بالله جل شأنه، والخضوع لأمره، والاستسلام لحكمه، وذلك يشير إلى أن استقامة القلب تقتضى استقامة الجوارح، وأن الإيمان موجب للعمل مستلزم له، وأن ترك القيام بالواجبات الظاهرة يدل على خلل فى خضوع وطاعة القلب ضعفًا ونقصانًا.

●ثالثا: يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران: ٣١).

تدل هذه الآية الكريمة دلالة واضحة صريحة على أن محبة الله تعالى، وهى من ركائز خضوع وطاعة القلب، تقتضى اتباع رسول الله ﷺ.

ذلك أن الآية تفيد أن اتباع شريعته عليه الصلاة والسلام، والانقياد لأمره، والاحتراز عن مخالفته، شرط لتحقيق محبة العبد لله جل شأنه .

فعلامة ما فى القلب من محبة صادقة لله ورسوله، هى طاعة الجوارح لله سبحانه، وتنفيذها لما جاء به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع .

ومن ادعى المحبة احتاج إلى إبراز البينة، التى هى اللازم والمقتضى. وإذا كانت المحبة له هى حقيقة طاعته وسرها، فهى إنما تتحقق باتباع أمره،

واجتناب نهيه، تتبين حقيقة الطاعة والمحبة، ولذا جعل تعالى اتباع رسوله ﷺ علماً عليها، وشاهداً لمن ادعاها فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١). فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم.

فما فى القلب من خضوع وطاعة يستلزم حركة الجوارح فى طاعته سبحانه، والمشتملة على طاعة رسوله ﷺ.

ومما يدل أيضاً على اقتضاء المحبة عمل الظاهر قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ (المائدة: ٥٤).

فقد تضمنت الآية الكريمة عدداً من صفات المؤمنين الصادقين، باعتبارها علامات على صحة محبتهم لله جل وعلا، وصدقهم فى دعواها، وعلى تحققها منهم بحصول موجبها ومقتضاها.

● رابعا: يقول الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف: ١١٠).

تقرر الآية الكريمة أن علامة صحة الرجاء فى قلب المؤمن هو العمل الصالح، والسلامة من الشرك فى عبادة الله سبحانه.

ويأتى الرجاء فى اللغة بمعنى الطمع والأمل وتوقع ما فيه سرور ومنفعة، ويستعمل توسعاً فى معنى الخوف مما فيه مضرة.

ويفهم من الآية أن الذى يشرك فى عبادة الله سبحانه، ولا يعمل الصالحات، لا يرجو لقاء ربه على سبيل الحقيقة.

ذلك أن عبادة القلب بالرجاء لابد أن يقارنها عمل بالجوارح يصدقها، إذ الرجاء الحقيقى هو ما كان باعثاً على الطاعة، دافعًا إلى الاستقامة، لأن من رجا شيئًا طلبه، وسعى لتحصيله، وبغير ذلك يصبح الرجاء فى الواقع مجرد تمن لا ثمرة له.

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢١).

وقوله جل وعلا: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ (الممتحنة: ٦).

فالآيتان الكريمتان تفيدان أن ثمرة رجاء ثواب الله تعالى وخوف عذابه جل وعلا، ولازم ذلك ومقتضاه، هو الاقتداء برسول الله ﷺ، والتزام شرعه، والتأسى بالخليل إبراهيم عليه السلام، ومن معه من المؤمنين، فى الثبات على عبادة الله جل شأنه، والبراءة من الشرك وأهله .

وقد أثنى الله جل شأنه على قوم بوصف الرجاء لرحمة الله وثوابه، بعد أن ذكر سبحانه ما به استحقوا هذا الوصف من التقرب إلى الله تعالى بصالح العمل، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٨).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (فاطر: ٢٩).

●خامسا: يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ (المائدة: ٩٤).

تفيد هذه الآية الكريمة أن الخوف من الله تعالى يقتضى طاعته والعمل بشرعه سبحانه أمرًا ونهيًا .

ذلك أن الآية الكريمة ذكرت الفرض الملزم : ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ .
والمقصود لازم ذلك من ترك التعرض للصيد حال التلبس بالإحرام، مهما كان الصيد سهلاً وقريباً .

وفى قصة ابنى آدم عليه السلام يقول الله تعالى : ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (المائدة : ٢٨) .

فقد جعل التقى منهما العلة المانعة له من قتل أخيه هى عبادة القلب المتمثلة فى الخوف من رب العالمين جل وعلا .

والكلام فى قول الله تعالى : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ (النور : ٣٧) . فخوفهم من عذاب الله يوم القيامة أنشأ لديهم طاعة لله تبارك وتعالى .

وكذلك قول الله جل شأنه فى وصف الأبرار : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

(الإنسان : ٧ — ١٠) .

فالباعث لهم إلى عمل الصالحات هو خوفهم من الله جل وعلا، أى يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها، خيفة من سوء الحساب يوم القيامة .

ولذا جمع القرآن بين الخوف ومجانبة الهوى، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النازعات: ٤٠ – ٤١).

فخشية الله جل شأنه تمنع من اتباع الهوى، وتستلزم طاعة الله سبحانه بامتثال أمره واجتناب نهيه.

١٧- أركان خضوع وطاعة القلب

ما يقوم بالقلب من خضوع وطاعة لله تعالى يمكن تقسيمه إلى قسمين:

أحدهما **قول القلب**،

والآخر **عمل القلب**.

كما أن حركة الأعضاء تدور بين قول اللسان، وعمل الجوارح.

ويعبر بقول القلب عن تصديقه المبنى على اعتقاد قطعى جازم، بينما يعبر بعمل القلب أو فعله عن ثمرات ذلك التصديق من المعانى القلبية التى تصل العبد بالله جل وعلا، كالمحبة والإنابة، والخشية والمراقبة، والرجاء والتوكل، والتعظيم والإخلاص، وغير ذلك من أعمال القلوب .

فإذا أطلقت عبارة ((إيمان القلب)) كان المراد بها ما يجمع الأمرين، قول القلب وعمله، كما يطلق عليهما اسم ((الإيمان)) إذا اقترن باسم ((الإسلام))، بينما إذا ذكرت حقيقة الإيمان الشرعية بإطلاق فإن المراد حينئذ يشمل بالإضافة إلى تصديق القلب وفعله قول اللسان وعمل الجوارح.

والعبارة المشهورة ((الإيمان قول وعمل)) يراد بها ما ذكر آنفاً من قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح.

وبين قول القلب وعمله علاقة وثيقة، إذ القول أصل، والعمل ثمرة تابعة له، ومن ثم فإن الاعتقاد الجازم فى القلب يستلزم حركة القلب طاعة ومحبة وتعظيماً، وخشية وإجلالاً، ولا يتصور أن يصدق عبد بالله ورسوله ﷺ، فيدخل فى دائرة الإيمان، دون أن يتحرك قلبه بمحبة الله جل شأنه، ومحبة رسوله ﷺ، ولا يمكن أن يكون إيمان القلب تامًا بمجرد العلم والاعتقاد، دون لازم ذلك من أعمال القلوب تشمل حب الله ورسوله وتعظيم الله ورسوله وتعزير الرسول وتوقيره وخشية الله والإنابة.، الإنابة إليه، والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان والطاعة، وهى مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة المعلول، ويتبع الاعتقاد قول اللسان، ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك.

(فمجرد علم القلب بالحق، إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه، مثل محبة القلب له، واتباع القلب له، لم ينفع صاحبه).

١٨- درجات الناس فى خضوع وطاعة القلب

تتفاوت درجات الناس فى خضوع القلب قربًا أو بعدًا عن الله تبارك وتعالى، وهم فى ذلك درجات ومراتب بحسب ما تشتمل عليه قلوبهم من الحسنات والسيئات .

وكما يتفاضل المؤمنون فى الأعمال البدنية الظاهرة، فإنهم كذلك يتفاضلون فى الأعمال القلبية الباطنة، ويرتقى بعضهم إلى منزلة أعلى من منزلة غيره فى السير إلى الله سبحانه وتعالى حسب ما قام بقلبه من خضوع وطاعة الله جل شأنه .

ذلك أن ما يقوم بالقلوب من الأعمال الصالحة ليس متساوياً ولا متفقاً، بل هو متفاوت ومتفاضل، على سبيل الإجمال فى مجموع العبادات القلبية،

وعلى سبيل التفصيل فى أفراد العبادات، أو فى الأحوال والأزمنة، فقد يجتمع من العبادات القلبية، لدى بعض المؤمنين ما لا يجتمع لدى آخرين، ثم فى نوع من تلك العبادات قد يفوق فيها بعضهم ويتميز عمّن سواه، بل قد تتفاضل تلك الطاعة فى القلب لدى المؤمن الواحد فى الأزمان والأحوال المختلفة، فقد يكون قلب العبد فى زمن أو حال أعظم محبة ورجاءً، أو خشية وتقوى، أو صبراً وتوكلاً، منه فى حال أو زمن آخر .

١٩- تفاضل الإيمان فى القلوب تتضح من خلال وجوه عدة منها:

١- أن إيمان القلب يزداد بزيادة العمل الصالح، ويستوى فى ذلك القول بأن الأعمال الظاهرة داخلة فى مسمى الإيمان .

ذلك أن تفاضل المؤمنين فى الأعمال الظاهرة للجوارح مبنى على تفاوت ما فى قلوبهم من الأعمال الباطنة .

وكلما كان التصديق فى القلب جازمًا، والطاعة فيه متمكنة، كان العبد حازمًا فى مواجهة الشبهة، قويًا فى معارضة الشهوة .

فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ (الأعراف: ٢٠١)، (فإذا لم يبصر بقى قلبه فى عمى، والشيطان يمده فى غيه، وإن كان التصديق فى قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار، وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعمى، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق، وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر) .

وعلى ذلك يتفاوت الناس فى إيمانهم بمقدار التزامهم بالشرائع والتكاليف الدينية، أو تفريطهم فيها، وبحسب سلامتهم من اقتراف الذنوب وارتكاب

الفواحش، أو وقوعهم فيها ((فليس إيمان السارق والزانى والشارب كإيمان غيرهم، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها، كما أنه ليس مثل دين هذا وبره وتقواه، بل هذا أفضل ديناً وبرًا وتقوى، فهو كذلك أفضل إيمانًا)).

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(السجدة: ١٨).

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾

(فاطر: ١٩ — ٢٠).

وهذا هو التفاضل فى إيمان القلوب من جهة العبد فيما يفعله من امتثال أمر الرب سبحانه، وتنفيذ ما أوجبه، واجتناب ما حرمه.

٢- أن إيمان القلب يزداد بزيادة العلم والمعرفة، فكلما علم العبد شيئاً من دين الله تعالى، أو بلغه نص من كتاب الله جل شأنه، أو حديث الرسول ﷺ، يتضمنان أمرًا أو خبرًا، وصدق بذلك واستيقنه، وعزم على الموافقة والانقياد، عن محبة وخوف ورجاء، قوى بذلك إيمانه، وارتفعت فى ذلك مرتبته ومنزلته، وازداد بذلك تصديقاً إلى تصديق، ويقيناً إلى يقين.

وهذا تفاضل فى الإيمان من جهة أمر الله جل وعلا إجمالاً وتفصيلاً، فإن الناس وإن كانوا متساوين فى ضرورة الإيمان والإقرار المجمل، لكنهم يتمايزون بعد ذلك فيما أمروا به من شرع الله تفصيلاً، وقد يجب على بعضهم من التصديق والإقرار والعمل ما لا يجب على الآخرين.

هذا من جهة الأمر الإلهى، وهو كذلك من جهة العبادة، فإنه كلما زاد العلم وعظمت المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ﷻ، وبشرعه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، مع التصديق الجازم، والمحبة الخالصة، والتقلب بين

الخوف والرجاء، وعزم القلب على الامتثال والانقياد، كان ذلك العلم عاملاً فى ازدياد نسبة الإيمان فى القلب.

٣- أن دائرة إيمان القلب لا تقتصر على التصديق فقط، بل تتعداه إلى ما يقتضيه التصديق ويوجبه من أعمال القلب وأحواله.

إذ الإيمان يشمل قول القلب واللسان، كما يشمل عمل القلب والجوارح، وقول القلب يستلزم قول اللسان، كما أن عمل القلب يستلزم عمل الأركان.

ويتمثل قول القلب فى التصديق الجازم بالله ورسوله وما ورد عنهما، ويتمثل عمل القلب فيما يقوم بالقلب من معان وأحوال تحركه إلى ربه جل شأنه وتعلقه وتصله به سبحانه، كالمحبة والخوف والرجاء والصبر والتوكل والإنابة والإخلاص، وغير ذلك من الأفعال القلبية، وكل ذلك داخل ولا ريب فى إيمان وطاعة القلوب.

وبذلك يتقرر الارتباط العميق والتلازم الوثيق بين تصديق القلب وأعماله التى تحركه وتبعثه إلى رضا الله جل وعلا وموافقة وطاعة أمره.

ومن ثم فإن الإيمان القلبى يتضمن - إضافة إلى التصديق الجازم- موافقة القلب ومواطأته لمراد الله ﷻ، وموالاته له، وانقياده لأمره وطاعته، عن محبة وإنابة، وتذلل وخشية، ورغبة ورجاء .

ولما كانت الأعمال القلبية جزءًا من إيمان وطاعة القلب، لا تنفك عنه، وهى مما يقبل التفاوت والتفاضل، والناس فيها منازل ومراتب، كان ذلك جانباً ظاهرًا، يزيد مسألة التفاضل فى خضوع وطاعة القلب وإيمانه كشفًا وبيانًا .

أن الناس يتفاضلون فى حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له وفى سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب ونحو ذلك والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الإخلاق الإيمانية.

ولا ريب أن من امتلاء قلبه بتلك الأعمال الإيمانية الدينية التى يحبها الله ويرضاها أكمل إيماناً ممن هم دون ذلك، إذ (التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذى لا يستلزم عمله، فالعلم الذى يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله، وخشيته، والرغبة فى الجنة، والهروب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل).

والذى يظهر أن مسألة الزيادة فى الإيمان بتلاوة الآيات أو سماعها لا يقتصر على زيادة التصديق فحسب، بل يراد بالزيادة الإيمانية أيضًا ما يحصل للآيات من أثر فى القلوب، يزيدها خشية وخشوعاً، ومحبة وإنابة، وطمأنينة ويقينًا، ورغبة ورهبة، وعزمًا على التسليم والخضوع والطاعة، والموافقة والانقياد، وتصبح تلك المعانى أحوالاً لها وصفات، ترتقى بها فى منازل الكمال الإيمانى.

والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (الأنفال: ٢). وهذه الزيادة إذا تليت عليهم الآيات، أى وقت تليت، ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن، إذا تليت عليه الآيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة فى الإيمان، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو، لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقيناً وتوكلاً على الله، وثباتاً على الجهاد، توحيدًا بأن لا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ (التوبة: ١٢٤ - ١٢٥).

وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها، بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها، فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كانت نهياً عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ والاستبشار غير مجرد التصديق.

٤- أن إيمان القلب يزداد بزيادة الأدلة والبراهين، فكلما تضافرت الدلائل القاطعة، وتوالت البراهين الواضحة، كان ذلك أدعى لقوة المدلول عليه، مما يثمر فى القلب زيادة فى الطمأنينة، ورسوخاً فى اليقين، وقوة فى الثبات على الحق. قال تعالى فى آية الأنفال: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة.

ولعل هذا المعنى هو مراد نبى الله إبراهيم عليه السلام حين طلب مشاهدة كيفية الإحياء، كما فى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

فكلما كان التصديق فى القلب ثابتاً، والعلم متمكناً، متعددة دلائله، ظاهرة حججه، قوية براهينه، بحيث يبلغ بذلك مرتبة اليقين الذى لا يضعفه ريب، ولا يؤثر فيه شبهة، كان ذلك أدعى لكمال الإيمان فى القلب وزيادته، وأبعد له عن ضعفه ونقصانه، وكان صاحبه أعلى مقامًا ومنزلة ممن هو دون ذلك فى قوة اليقين، بحيث يقبل الشك وتخالجه الريبة لأول شبهة تعترض.

٢٠- الدلالة السباعية لسعادة القلب :

١- إخلاص التوحيد وإسلام النفس لله تعالى.

٢- الشوق إلى لقاء الله تعالى والافتقار إليه.

٣- معرفة أن أفضل نعيم الآخرة هو النظر إلى وجهه تعالى.

٤- أن يعلم أن النصر والرزق بيده تعالى.

٥- معرفة ضرر التعلق بغير الله.

٦- معرفة أن الاعتماد على المخلوق خُذلان.

٧- معرفة أن النفع بيده تعالى.

٢١- سكينة القلب :

أصل ((السكينة)) هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يردُ عليه، ويوجب له قوة اليقين والثبات.

والسكينة إذا نزلت على القلب اطمأنَّ بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول اللغو، وكل باطل.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ (الفتح: ٤).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾

(الفتح: ١٨).

معنى السكينة:

فالسكينة فعيلة من السكون، وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها فى القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهى عامة وخاصة.

سكينة الأنبياء:

فسكينة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - أخصُّ مراتبها وأعلى أقسامها. كالسكينة التى حصلت لإبراهيم الخليل عليه السلام، وقد ألقى فى النار، فلله تلك السكينة التى كانت فى قلبه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦٩).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

(البقرة: ٢٦٠).

وكذلك السكينة التى حصلت لموسى عليه السلام وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم، والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الشعراء: ٦٢).

وكذلك السكينة التى حصلت له عليه السلام وقت تكليم الله له، نداء وكلاماً حقيقة سمعه بأذنه.

وكذلك السكينة التى نزلت عليه وقد رأى حال القوم عصيَّهم كأنَّها تسعى، فأوجس فى نفسه خيفة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ (طه: ٦٧ - ٦٨).

وكذلك السكينة التى حصلت لنبينا محمد ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما، وهما فى الغار، فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهمـا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ (التوبة: ٤٠).

وكذلك السكينة التى نزلت عليه فى مواقفة العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به، كيوم بدر، ويوم حنين، ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهى من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإنَّ الكذب- ولاسيما على الله - أَقْلَقُ ما يكون وأخوف ما يكون، وأشدّه اضطراباً فى مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من الآيات إلاّ هذه وحدها لكفتْهم .

سكينة أتباع الرسل:

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم؛ وهى سكينة الإيمان، وهى سكينة تسكّن القلوب عن الريب والشك.

ولهذا أنزلها الله على المؤمنين فى أصعب المواطن، أحوج ما كانوا إليها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) ﴾ (الفتح: ٤).

فذكر نعمة الله عليهم بالجنود الخارجة عنهم، والجنود الداخلة فيهم.

وهى السكينة عند القلق والاضطراب، وذلك يوم الحديبية، قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الفتح: ١٨)؛ لِمَا علم الله سبحانه وتعالى ما فى قلوبهم من القلق والاضطراب، لمَّا منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدى عن محلّه، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت ولم تطق الصبر.

فعلم الله ما فيها، فثبَّتها بالسكينة، رحمةً منه ورأفةً ولطفاً، وهو اللطيف الخبير.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الفتح: ٢٦).

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل الله فى قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفى ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور.

٢٢- العوامل المؤثرة فى حياة القلب (الدلالة السباعية من العوامل التى تؤثر على طاعة القلب):

إذا كان للبدن حياة حسية يتحرك بها وينتفع، وله غذاؤه الذى يعيش به وينمو، ويشترك معه فى ذلك الحيوان والنبات، على تفاوت فى الحياة والنمو والغذاء، فإن للقلب حياة معنوية خاصة به، هى أصل صلاحه وكماله ونعيمه.

وغذاء تلك الحياة المختصة بالقلب، وأصل وجودها، وسبب نمائها، يتمثل فى إخلاص الطاعة لله تعالى، والتجرد فى توحيده والإيمان به جل وعلا.

ذلك أن المؤمن إذا سلك طريق الهداية بتوفيق الله ولطفه، استنار قلبه واستضاء، فصار منشرحًا للإسلام، مطمئنًا بالإيمان، متسعًا لقبول الهدى، منفسحًا لإجابة الحق، فرحًا متلذذًا بتلك الحياة، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزمر: ٢٢).

هذا الانشراح بالإسلام، والاستنارة بوحى الله تعالى وهداه، هو علامة الحياة للقلب بعد أن كان فى جملة الأموات.

يقول الله جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢).

(هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتًا، أى فى الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أى أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله).

** الدلالة السباعية من العوامل التى تؤثر على طاعة القلب:

أولا: العلم:

يراد بالعلم ما أوصل إلى الإيمان بالله تعالى، وعبادته وحده سبحانه، ويشمل ذلك مصدرين:

المصدر الأول: الوحى المسموع المنزل من عند الله سبحانه، قرآنا أو سنة، والذى يعرف به العبد ربه بأسمائه وصفاته جل وعلا، ويدرك المسلك الصحيح الذى يعبده به جل شأنه، ويعلم الوعد المترتب على الطاعة والاهتداء، والوعيد المترتب على المعصية والضلال.

المصدر الثاني : الآيات الكونية المشهودة التى يدل التأمل والتفكر والنظر فيها على عظمة الله وقدرته، وعلى عزه وسلطانه، وعلى استحقاقه للطاعة وحده دون سواه.

إن اتصاف العبد بوصف العلم من هذين الطريقين يضفى على قلبه حياة وطاعة ونورًا وإشراقًا، ويثمر فيه خشية وإنابة وحبًا.

إذ العلم قوت القلب وغذاؤه، يحسّ به كما يحسّ الجسم بالطعام والشراب. وبالمقابل فإن من يفقد هذا العلم من أهل الجهل بالله ودينه محكوم عليه بموت القلب، وإن كان الجسد والبدن معدودًا فى دائرة الأحياء .

ولذا قال الله سبحانه وتعالى : مخاطبًا رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (فاطر : ٢٢).

فالكافرون موصوفون بموت القلب، وذلك بفقدهم الإحساس والحركة بالعلم الحقيقى بالله وشرعه، وثمرة ذلك من الإيمان والاهتداء، وهم فى هذا الموت القلبى أشباه لأهل القبور فى عدم الانتفاع، (أى هم بمنزلة أهل القبور فى أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه) .

ولما كان القرآن وعاء للعلم الذى تحيا به القلوب وتستضيء به، سمّاه الله تعالى نورًا فى أكثر من آية فى الكتاب العزيز .

يقول الله جل وعلا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ (النساء : ١٧٤).

والمراد بالنور المبين القرآن كما ذكر عامة المفسرين. ويقول تبارك وتعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ (التغابن : ٨). (سمى القرآن نورًا لأنه يهتدى به فى ظلمة الجهالة والضلالة، ويعرف به الحلال والحرام).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

ويقول جل شأنه: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

(النور الذى أنزل معه القرآن سماه نورًا لأن بيانه فى القلوب كبيان النور فى العيون).

ويقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾

(الشورى: ٥٢.)

وقد أضافت هذه الآية الكريمة إلى وصف القرآن الكريم بأنه نور وصفه بأنه روح، إشارة إلى حاجة القلب إليه، واعتماده فى حياته عليه، كما تعتمد حياة الأجساد على بقاء الأرواح، فإذا أقفل العبد باب العلم الذى تضمنه الوحى الإلهى، فقد أغلق على قلبه منافذ الحياة والطاعة، وأوجب له موتًا وظلمة ووحشة.

ومن الآيات التى تشير إلى أثر العلم فى حياة القلب قول الله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج: ٥٤).

فقد بينت الآية الكريمة أن المتصفين بالعلم يوقنون بأن القرآن المنزل على رسول الله ﷺ هو الحق الظاهر بلاشك أو ريب فيعظم إيمانهم به، وثمرة ذلك إخبات قلوبهم لما يتضمنه الوحى الإلهى من البيان والهدى، اطمئنانًا به، وخشوعاً وخضوعاً وطاعةً وانقيادًا له.

وبين الله سبحانه وتعالى: فى آية أخرى أن العلم سبيل إلى خشيته سبحانه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨). (أى من كان عالمًا بالله اشتدت خشيته).

ذلك أن مدار الخوف والتعظيم والخشية على العلم بالله تعالى، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وآثار عظمته وقدرته، وملكه وعزه وسلطانه، ووعده ووعيده، من جهة تدبر الآيات التنزيلية، ومن جهة التفكر فى الآيات الكونية.

فالعلم بالله جل شأنه يوجد فى القلب حياة، ويوجب خشية، وثمرة ذلك حياة الجوارح وامتثالها، فعلاً للحسنات وتركًا للسيئات.

ويشير إلى ذلك أيضاً قول الله تعالى معلّمًا نبيه موسى عليه السلام كيف يخاطب فرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (النازعات: ١٨- ١٩).

فإذا تحقق للعبد الاهتداء إلى ربه جل شأنه، والعلم به سبحانه، كان سببًا فى استقرار الخشية والخشوع فى القلب إذ ((الخشية تابعة للعلم))، وقيل ((رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى)).

وقد ضرب الله جل وعلا مثلًا لأثر الوحى الإلهى المتضمن للعلم والهدى فى حياة القلب وضيائه وصلاحه، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ (الرعد: ١٧).

ففى معنى الآية الكريمة يرى عدد من المفسرين أنها مشتملة على تشبيه للعلم الذى تحيا به القلوب وتستضيء، بالماء النازل من السماء تحيا به الأرض والأبدان، وتشبيه للقلوب التى هى أوعية للعلم ومحل له، بالأودية التى هى محل الماء.

وفى كتاب الله العزيز ما يشير إلى أثر العمل الصالح فى حياة القلب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل: ٩٧).

فالآية الكريمة تتضمن وعدًا لمن عمل الصالحات بأن يحييه الله حياة طيبة، وقد ذكر المفسرون فى المقصود بالحياة الطيبة أقوالاً عدة، منها السعادة، والانشراح بالعبادة، والتلذذ بحلاوة الطاعة، والقناعة، والرضا بالقضاء، والرزق الحلال، والعافية، وغير ذلك.

ولاشك أن أعظم مظاهر الحياة الطيبة حياة القلب، سعادة وسرورًا، وطمأنينة وسكونًا، ورضا وقوة يقين، وحلاوة إيمان. بل ذلك هو أساس الحياة الطيبة وجوهرها، فإذا أضيف إليه سعة رزق، وتمام صحة، وغير ذلك من متاع الحياة وشهواتها المباحة.

ومن الآيات التى تشير إلى أثر العمل الصالح فى حياة القلب أيضًا قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال: ٢٩).

فالآية الكريمة تبين أن عاقبة التقوى فرقانًا يهبه الله تعالى للعبد. والفرقان ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل، وكان ذلك سبب نصره ومخرجه من أمور الدنيا وسعادة فى يوم القيامة.

وقد فسّر عدد من أهل التفسير هذه الآية بالآية الأخرى فى سورة الحديد، وهى قول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الحديد: ٢٨).

وذلك باعتبار أن النور المذكور فى هذه الآية هو الفرقان المذكور فى الآية السابقة.

ومن الآيات فى هذا المعنى كذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

والمراد بالحياة فى هذه الآية الكريمة حياة القلوب وسعادتها، واستنارتها وضياؤها، ونجاتها من الشقاء، وسلامتها من ظلمة الجهل وعمى البصيرة.

وسبيل هذه الحياة هو الاستجابة لله ورسوله، وطاعتهما، وذلك بالتزام القرآن والسنة، امتثالاً للأمر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٢).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ فقد أورد أهل التفسير فى المعنى المراد عدة أقوال، ومنها ما يلي:

١- أن معنى ذلك أن الله جل شأنه قريب من قلب عبده، محيط به، مطلع عليه، لا يخفى عليه شيء من أمره أعلنه وأظهره، أو أسره وأضمره.

وعلى هذا فالمعنى مشابه للمعنى الوارد فى قول الله سبحانه: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ (ق: ١٦). والمقصود حثّ المؤمنين على خشية الله تبارك وتعالى ومراقبته سبحانه.

٢- أن المعنى يحول بين المرء وقلبه بالموت، وذلك باعتبار أن الأجل إذا حان لا يمكن للإنسان تدارك ما فات.

وقيل: لما أمرهم بالاستجابة فى الطاعة حضهم على المبادرة والاستعجال فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ بالموت والقبض، أى فبادروا بالطاعات. وفى الكلام قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى فبادروا بالطاعات، وتزودوها ليوم الحشر.

٣- أن المعنى ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فيبدل الخوف أمنًا، والجبن جرأة وشجاعة.

والمقصود على هذا القول تغليب الرجاء لدى المؤمنين بأن الله سبحانه قادر على تبديل ما فى قلوبهم من الخوف من كثرة عدد خصومهم، وعظم عدّتهم، فيربط عليها، ويبث فيها الأمن والسكون، والشجاعة والثبات، والعكس بالنسبة لعدوهم فيجعل ثباتهم ضعفًا، وأمنهم خوفًا، وشجاعتهم جبنًا وخورًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥).

٤- أن المعنى يحول بين المرء وعقله بمرض أو آفة، فيصبح منتفى العقل لا يدرى ما يعمل، ومن ثمّ فلا يقدر على فعل الخير، عقوبة له على عناده. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الأنفال: ٢٤).

والمقصود الحث على المبادرة إلى الاستجابة، لأن المرء لا يأمن زوال عقله فلا يتمكن من العمل.

وقريب من هذا قوله تعالى ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ (آل عمران: ١٣٣).

٥- أن المعنى يحول بين المرء وما يتمناه قلبه ويشتهيه ويهواه.

(المعنى أنه تعالى هو المتصرف فى جميع الأشياء، والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو الذى ينبغى أن يستجاب له إذا دعا، إذ بيده تعالى ملكوت كل شيء وزمامه، وفى ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله تعالى).

٦- أن المعنى يحول بين المرء وقلبه فلا يقدر على الإيمان أو الكفر إلا بإذن الله تعالى ومشيئته.

وهذا المعنى يناسب الآيتين السابقتين على هذه الآية، وهما قول الله جلا وعلا: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(الأنفال: ٢٢ – ٢٣).

ووجه المناسبة: إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة، وأبطأتم عنها، فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ (الأنعام: ١١٠). وقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ (الصف: ٥). وقوله: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ ﴾ (الأعراف: ١٠١).

ففى الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح، وفى الآية سر آخر، وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة، وبين القدر والإيمان به. فهى كقوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التكوير: ٢٨ – ٢٩). وقوله: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (المدثر: ٥٥ – ٥٦). والله اعلم.

ثانيا: الذكر والاستغفار والتوبة:

لاريب أن ذكر الله جل شأنه سبب مؤثر فى حياة القلوب، إذ هو قوتها الذى تتغذّى به، ودواؤها الذى تسلم به من ضعف المرض، وشفاؤها الذى تبرأ به من وهن الاعتلال، إذا فارقها انتكست وبارت، وإذا اشتملته أنست وسعدت، وكان لها جلاء وصقالا، "ومن الذكر القلبى التفكر فى آيات الله المشهودة والاستدلال بها على عظمة الله وقدرته واستحضار آلائه ونعمه، وتذكر أسمائه وصفاته ووعده وتعظيم أمره ونهيه ونحو ذلك".

وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر الذكر فى حياة القلب، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد: ٢٨).

فالآية الكريمة تقرر أن ذكر الله سبحانه يثمر فى القلب طمأنينة ورضا، وسرورًا وأنسًا، فيسكن ويستقر، ويرتفع عنه الاضطراب، ويزول القلق. وذلك نوع من أنواع حياة القلب، ولون من ألوانها.

ومعني: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾. (تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله).

وقيل (أى تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا).

وقد أوصى الله تعالى نبيه ﷺ بأن يكون من الذاكرين المصلين، ليكون الذكر والصلاة زادًا يعينه على تحمل الأذى، وسبيلاً إلى سلامة قلبه من عوالق الضيق والانقباض، فينكشف الغم، ويزول الهم والحزن، فى مقابل ما يثيره زعماء الكفر من الشبهات، وما يواجهونه به من صور المجابهات.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الحجر: ٩٧ – ٩٨).

وذكر الله تعالى يحرك القلوب إلى خالقها جل وعلا، ويوثق علاقتها وصلتها ببارئها سبحانه، فيزيد إيمانها، ويربو خشوعها وطاعتها، وتزول قسوتها، ويعظم إخباتها، وذلك علامة حياتها، وقيل أن الذكر ينبت الإيمان فى القلب كما ينبت (الماء الزرع)

إن المؤمن إذا ذكر ربه سبحانه، كان ذلك داعيًا له إلى المحاسبة، وباعثًا إلى التفكر والتبصر بقلبه، كما قال الله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

(أى يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكر والتفكر). ومن ثم يصدون كيد الشيطان، ويزيلون ما مسّهم من إغرائه، فيبقى لقلوبهم صفاؤها وحياتها.

ولهذا استدل بالآية الكريمة على: (أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا).

ومن ثمرات هذا الذكر لله تعالى المبادرة إلى التوبة، واللجوء إلى الاستغفار مما قد يقع فيه المؤمن من نوع إثم أو تقصير، فتحدث التوبة أثرها فى صقل القلب وجلائه من صدأ الهوى والغفلة، ومن قذارة المعصية والخطيئة.

والمعنى أن التوبة والاستغفار تزيل ما أصاب القلب من أثر المعصية، فتجلوه، وتعيد إليه صفاءه ونوره ونقاءه، ويبقى محفوظاً بإذن الله من السواد.

ثالثا: التعلق بالقرآن الكريم:

سمّى الله تبارك وتعالى القرآن روحًا، فقال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢)، وهو تقرير إلهى بأن القرآن سبب فى حياة القلوب، يوجب نورها وأنسها وسعادتها.

ذلك أن المؤمن حين يتصل بالقرآن بصدق فإن آياته البينات تهديه سواء السبيل، وتضيء له معالم الطريق، (فتريه الحق حقًا والباطل باطلاً، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، وتعطيه قوة فى قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا، وبهجة وسرورًا).

وقد أخبرنا الله جل شأنه أن القرآن الكريم- تلاوة وترتيلاً، سماعًا وإدراكًا، تأملاً وتدبراً، فهمًا واتعاظًا، استجابة وقبولا – شفاء للقلوب: يداويها من عللها وأدوائها، ويعالجها من أمراضها وأسقامها، ويضيء لها ظلمتها، ويبصرها من عماها، ويهديها بنوره من الضلالة، ويرتفع بها عن الجهالة، فلا تتأثر بالشبهة، ولا تتدنّس بالمنكر من الشهوة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (يونس: ٥٧).

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء: ٨٢).

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ (فصلت: ٤٤).

(المراد من الشفاء هو الشفاء من الجهل بالعلم، ومن الضلالة بالهدى، ومن الشك باليقين)). أي: (يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفى من ذلك كله).

فإذا برئت القلوب من أمراضها، وشفيت من أدوائها، وسلمت من وحشتها وظلمتها، تمتعت حينئذ بطيب الحياة، ونور العلم، ولذة الهداية، وذاقت طعم الإيمان، ووجدت حلاوته.

*** وقد أخبرنا الله تعالى أيضًا أن القرآن ينمّى الخشوع:**

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩).

*** ويلين القلوب:**

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الزمر: ٢٣).

*** ويزيد فى الإيمان واليقين:**

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (الأنفال: ٢).

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٤).

والمقصود أن المؤمن كلما سمع آية صدق بها، وتقبّلها، فيربو بذلك إيمانه، ويعظم يقينه. وذلك باعتبار أن (القرآن يعطى العلم المفصل فيزيد الإيمان).

وحين يقرأ المؤمن القرآن، أو يستمع إليه، عن إيمان ويقين، وانقياد وقبول، فيتهدى به فى ظلمة الأهواء المخالفة، ويدفع به الشبهات والآراء المعارضة، ويزيل به عن نفسه الشكوك والريبة، أثمر ذلك طمأنينة فى القلب وسكينة وطاعة.

يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد : ٢٨).

أما المعرض عن كتاب الله العزيز فقد توعده الله جل شأنه بالمعيشة الضنك، المشتملة على موت القلب وشقائه.

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه : ١٢٤).

والذكر فى الآية القرآن، والمعني : أعرض عن الذكر الذى أنزلته، وهو القرآن المشتمل على الحق والهدى.

وفى مقدمة أنواع العيش الضنك ضيق القلب ونكده، واضطرابه وقلقه، وافتقاده إلى اللذة والسعادة، والسكون والطمأنينة.

فإن المرء إذا أعرض عن القرآن وجفاه وجانب هديه، كان بمعزل عن الإيمان الصحيح، واليقين الصادق، وما يثمره ذلك من معانى الصبر والرضا، والتوكل والقناعة والطاعة، متلبسًا بالشكوك والأوهام، ملتصقًا بالحرص على المتاع والشهوة، قلقًا على العاقبة الدنيوية والمآل القريب فلا يجد بذلك الحياة الرضيّة، ولا يذوق المعيشة الهانئة.

تفسير الآية الكريمة : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾. فى الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبه يتردد، فهذا من ضنك المعيشة .

رابعا: الالتجاء إلى الله تعالى والتضرع إليه بالدعاء:

من دواعي حياة القلب أن يديم المؤمن التوجّه إلى الله جل وعلا بالدعاء أن يشرح صدره، ويثبت قلبه، ويسلّمه من مرض الشبهة والشهوة.

ومن الدعاء الوارد في هذا الباب ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٨).

ففي هذه الآية تعليم للمؤمنين دعاء ربهم سبحانه أن يثبت قلوبهم على الحق والهدى، وأن يحفظها من الانحراف إلى سبل الضلال والباطل.

(أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه). وأثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين يسألون ربهم سلامة قلوبهم.

يقول الله جل شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحشر: ١٠).

فهم يدعون بأن يجعل الله تعالى قلوبهم خالية من العداوة والبغضاء، صافية من الحقد والغش والحسد لإخوانهم من المؤمنين.

وكان من دعاء نبي الله موسى عليه السلام حين بعثه الله تعالى إلى فرعون ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ ﴾ (طه: ٢٥).

وشرح الصدر بمعنى بسطه وفسحه وتوسعته ليكون قابلاً للحق، مستنيرا بالإيمان واليقين، متحليًا بالصبر والثبات، معمورًا بالسكينة والطمأنينة، والثقة والتوكل.

وفي هذا الدعاء من موسى عليه السلام إبراز لمعنى طاعته لربه جل وعلا، وافتقاره إلى عونه، واضطراره إلى رعايته تبارك وتعالى.

وكان من دعا رسولنا ﷺ: (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)، كما كان يكثر عليه الصلاة والسلام أن يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).

خامسا: إغلاق منافذ الشيطان والاستعاذة بالله منه:

أكد الله جل وعلا في أكثر من موضع في القرآن الكريم على عظم عداوة الشيطان للإنسان، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ (الإسراء: ٥٣). وقوله ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ (القصص: ١٥).

ومن عداوة الشيطان الظاهرة دأبه على إضلال المؤمنين وإغوائهم، وتزيين الكفر والمعصية في قلوبهم، والوسوسة بالشر في صدروهم، ومحاولته المتجدّدة في الاستحواذ عليهم، وإيقاعهم في حبائله وأباطيله، فيصدهم عن طاعة الله جل شانه، وينأى بهم عن الاستقامة على شرعه ودينه، لتصبح قلوبهم محلاً للغفلة، ومقرًا للشبهة، ومرتعًا للشهوة، ناسية للحق، تاركة للهدى، غافلة عن الذكر .

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

ويقول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ ﴾ (الحجر: ٣٩).

ويقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾ (الناس: ٥).

ويقول الله تعالى: ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ ﴾ (المجادلة: ١٩).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الزخرف: ٣٧).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (يس: ٦٢).

ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ (فاطر: ٦ .)

ويقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (يس: ٦٠).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ ﴿ الزخرف: ٦٢).

ويقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٦٨ — ١٦٩).

ويقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (النور: ٢١).

وخطوات الشيطان سبله ومسالكه فى الإغواء والإضلال، وتزيين الباطل، والحض على المعصية.

فالآيات الكريمة تتضمن نهيا للناس عمومًا، والمؤمنين خصوصًا، عن طاعة الشيطان، وقبول وساوسه، وتنفيرًا عن سلوك سبيله، والسير فى طريقه الذى يدعو إليه، وتحذيرًا من متابعته فيما يأمر به من السوء، أو الاستجابة لما ينهز إليه من الضلال.

ومن المهمّ لمراغمة الشيطان وحماية القلب من كيده، العمل على سدّ منافذه على القلب، وإغلاق الأبواب التي تفتح له طريقاً إليه.

ولذا أمر الله تعالى بالكلمة الطيبة والخطاب الحسن، ومجانبة الكلام الخشن الغليظ، حتى لا يجد الشيطان ثغرة لإلقاء العداوة بين المؤمنين، ومدخلاً للإفساد بينهم، وتهييج الشر، وإثارة الخصومة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (الإسراء: ٥٣).

ومن أهم العوامل المؤثرة في إغلاق مداخل الشيطان على القلب تقوى وطاعة الله جل وعلا وذكره تبارك وتعالى.

ذلك أن القلب إذا خبث بغلبة المعصية من جهة، وبالغفلة عن ذكر الله تعالى من جهة أخرى، أصبح محلاً قابلاً لإغواء الشيطان ووسوسته، وكان التجافي عن التقوى، والغفلة عن الذكر، من دواعي الهجوم الشيطاني على القلب، بالاعتقادات الباطلة، والإرادات الفاسدة، بغية إسقامه أو إماتته بالكلية.

والشهوات هي سلاح الشيطان يقاتل به المؤمن للاستيلاء على قلبه، والاستحواذ عليه، وهي المرعى الذي يجد الشيطان فيه مجالاً خصبًا لرعيه وقوته وكسبه، فإذا طهرت القلوب من الشهوات، وما تتلبّس به من ذميم الصفات، وعمرتها التقوى، وأنارها الذكر، نجت وسلمت من أن تكون مستقرًا للشيطان، ينشر فيها إلقاءاته، ويبسط فيها سلطانه.

فإذا تعامى العبد عن ذكر الله تعالى تهيأت للشيطان على القلب ثغرة، وانفتح له باب ومدخل، يلج خلاله إلى القلب فيفسد.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الزخرف: ٣٦).

فالآية الكريمة تقرر أن من أعرض عن ذكر ربه تبارك وتعالى، وتغافل عن وعده ووعيده، فلم يتقلّب بين خوف العقاب ورجاء الثواب، وتجاهل هديه المنزل أمرًا ونهيًا، فلم يمتثل ولم يخضع، كان ذلك الإعراض والتجاهل سببًا في تمكين الشيطان وتسليطه على العبد، إضلالاً وإغواء وصدًا عن السبيل.

وبالمقابل فإذا ذكر العبد ربه كفّ الشيطان، إذا الذكر هو الضد الذى يعالج وسوسته، ويطارده كما يطارد النور الظلام.

أي: ((بالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان)).

ولذا وصف الشيطان بالخنوس فى قول الله جل وعلا: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ﴾ (الناس: ٤).

فالوسواس والخناس وصفان متقابلان للشيطان بحسب حال القلب، فإذا غفل العبد عن ذكر الله تعالى كان وسواسًا بالنسبة إليه، وإذا ذكر العبد ربه كان خنّاسًا بالنسبة إليه، وقيل إن الشيطان خاتم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر خنس.

ويعصم الله تبارك وتعالى قلوب عباده المتقين من أن يتمكن الشيطان منها استحواذًا وتملّكًا، بسبب ذكرهم لربهم سبحانه.

يقول الله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

فالآية الكريمة تخبر أن الملازمين للتقوى حين ترد على قلوبهم وساوس الشيطان وإغراءاته، تذكروا وعد الله ووعيده، وتفكروا فى عظمته وقدرته وآلائه، واستحضروا ما يجب عليهم من الامتثال لأمره ونهيه، وعرفوا أن ما ألمّ

بهم هو من كيد الشيطان وتلبيسه، فيحصل لهم بذلك التذكر بصيرة فى قلوبهم، يبصرون بها الهدى، ويميزون بها الحق، ويحدّدون مواطن الرجس والزلل، ومن ثَمّ لا تجد تلك الوساوس لديهم قبولاً.

ومن أهم السبل أيضًا فى صيانة القلب من وساوس الشيطان اللجوء إلى الله سبحانه، وطلب النجاة منه، والاعتصام والاستعاذة به، والامتناع بقدرته وقوته جل وعلا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ (فصلت: ٣٦).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (المؤمنون: ٩٧ — ٩٨).

ويقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ (الناس: ١ — ٦).

ففى هذه الآيات الكريمة تعليم للمؤمنين بأن يتجهوا إلى الله جل وعلا بالدعاء، أن يسلّمهم من وساوس الشيطان وهمزاته وحضوره إليهم بالسوء، ووصية لهم باللجوء إلى ربهم سبحانه استعاذة واعتصاما به من نزعات الشيطان ومداخله وإفساده، إذ هو تبارك وتعالى المتصف بكمال الربوبية للثقلين، خلقًا وقدرة وملكًا وسلطانًا، ومن ثَمّ فهو جل شأنه من يملك حفظ قلوب أهل طاعة الله من حضور الشياطين واستحواذهم، وهو القادر على كف شرورهم، وردّ كيدهم وإغوائهم.

٢٣- صلاح القلب :

والمقصود : إن صلاح القلب وسعادته وفلاحه فأخبر سبحانه أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. نعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا أحسن تشبيه، فإن أبدانهم قبور فوق قلوبهم، فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم :

قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يس: ٦٩ — ٧٠).

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب.

كما قال في موضع آخر : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق: ٣٧).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (فاطر: ٢٢).

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلى الأنبياء روحاً، كما قال تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (غافر: ١٥).

وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢)، لأن حياة الأرواح والقلوب به.

وهذه الحياة الطيبة هى التى خصَّ بها سبحانه من قَبِلَ وحيه، وعملَ به، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل: ٩٧)، فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ ﴾ (هود: ٣).

ومثله قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النحل: ٣٠).

فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه فى الدنيا وفى الآخرة، كما أخبر أنه يُشقى المسيء بإساءته فى الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (طه: ١٢٤).

وقال تعالى، فجمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ (الزمر: ٢٢).

فأهل الإيمان فى النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال فى الظلمة وضيق الصدر.

والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه ... وموته وظلمته مادة كل شر.

الباب الثاني

ويتضمن:

١- الدلالة الثلاثية لأسلحة شياطين الإنس والجن لاقتحام النفس البشرية .

٢- أبواب الشيطان إلى القلب.

٣- الدلالة السباعية لأبواب الشيطان.

٤- الدلالة الرباعية للسبل التى يسلكها الشيطان .

٥- الدلالة الثلاثية لمداخل الشيطان إلى الإنسان .

٦- أنواع الوسوسة فى صدور الناس .

٧- الدلالة الثلاثية لمجاهدة هؤلاء الأعداء .

٨- أدلة مرض القلب وصحته.

٩- الإحساس بمرض القلب .

١٠- الدلالة السباعية لمفسدات القلب وأسباب أمراضه.

١١- حجب القلب عن الرب تعالى.

١٢- الدلالة الثلاثية على الخير والشر فى التقلب والثبات للقلوب .

١٣- أمراض القلب .

١٤- الباطل يؤدى إلى تحريف الحق .

الباب الثاني

١- الدلالة الثلاثية لأسلحة شياطين الإنس والجن لاقتحام النفس البشرية:

أحدهما : سلاح الشهوات، لإفساد سلوكه فيغوي: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ (مريم: ٥٩).

الثاني : سلاح الشبهات، لإفساد فكره فيضل: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ﴾

(آل عمران: ٧).

الثالث: سلاح الهوى وآفات النفس ويضل عن الصراط المستقيم ،
قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

(الحج: ٣ — ٤).

٢- أبواب الشيطان إلى القلب :

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٦ — ١٧).

وقال الله تعالى: ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ (النساء: ١٢٠ — ١٢١).

سبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكًا، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانًا.

واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقًا والذى يتهيأ به لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانًا.

والملك عبارة عن خلق خلقه الله من نور، شأنه إفاضة الخير، وإفادة العلم، وكشف الحق، والوعد بالخير، وكمال الطاعة، والأمر بالمعروف، وقد خلقه الله وسخره لذلك.

والشيطان عبارة عن خلق خلقه الله من نار، وشأنه ضد عمل الملك، فعمله الوعد بالشر، والأمر بالفحشاء والمنكر، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر، وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، والأمر بالسوء، وتزيين المعاصى للعباد، وهو عدو بنى آدم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ (فاطر: ٦).

والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ... ولقبول آثار الشيطان ... صلاحًا متساويًا. ويترجح أحد الجانبين على الآخر باتباع الهوى، والانغماس فى الشهوات، أو الإعراض عنها ومخالفتها.

فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة، ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه، لأن الهوى مرعى الشيطان ومرتعه.

وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه، وتشبه بأخلاق الملائكة، صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً فوسوس. ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان، وضاق مجاله، وأقبل الملك، وألهم فعل الخير.

والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثانى اختلاسًا.

ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به، لأنه إذا خطر فى القلب شيء، انعدم منه ما كان فيه من قبل.

فينبغى للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه، لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه. وأن يعرف سلاح عدوه، ليدفعه عن نفسه، وسلاح الشيطان الهوى والشهوات، وذلك كافٍ للعالمين.

فالقلب كالحصن، والشيطان عدو يريد أن يقتحم الحصن ويدخله، فيملكه ويستولى عليه.

ولا يقدر الإنسان على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله.

٣- الدلالة السباعية لأبواب الشيطان:

أولا: الغضب والشهوة، فالغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل، هجم جند الشيطان، فأفسد القصر ومن فيه. ومهما غضب الإنسان، لعب الشيطان به، وفجر شهواته فيما يغضب الله.

ثانيا: الحسد والحرص، فمهما كان الإنسان حريصًا على كل شيء أعماه حرصه، وأصمه عن الإيمان، وأقعده عن الطاعات، وزين له الكفر والفسوق والعصيان.

ثالثا: الطمع فى الناس، وإذا غلب عليه الطمع زين له الشيطان وحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء، حتى يصير المطموع فيه معبوده.

رابعا : المال، وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار.

خامسا : العجلة وترك التثبت فى الأمور، حتى يقع فيما لا يحمد عقباه.

سادسا : البخل وخوف الفقر، ليمنع به الصداقات والإحسان إلى العباد، لتكثر الجرائم والسرقات، ومن آفات البخل : الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق مسرح الشياطين، تزين لأهلها الكذب والغش والاحتيال.

سابعا : حب التزين فى الأثاث والثياب، والمراكب والمساكن.

فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيينها وتوسيعها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب والمراكب.

ولا يزال يغريه ويزين له، حتى ينقله من صف المحسنين المتقين إلى صف المسرفين والمبذرين والمترفين، والإسراف فى إضاعة الأموال بالشهوات، وإضاعة الأوقات بالباطل ، وإضاعة العقول بالعلوم السافلة، وإضاعة الحسنات بجمع الحطام الفانى.

والملائكة والشياطين تتوارد على القلوب، وتحوم حول أبوابها، فإن أصابه هذا من جانب، أصابه الآخر من جانب آخر.

فإذا نزل به الشيطان، فدعاه إلى الهوى، نزل به الملك فصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر، جذبه شيطان آخر إلى غيره، وإن جذبه ملك إلى خير، جذبه ملك آخر إلى خير غيره. فتارة يكون القلب متنازعًا بين ملكين.. وتارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان.

٤- الدلالة الرباعية للسبل التى يسلكها الشيطان:

((اليمين ..... والشمال ..... بين أيديهم ..... والخلف))

وأى سبيل سلكها الإنسان من هذه وجد الشيطان عليها رصدًا له. فإن سلكها العبد فى طاعة وجد الشيطان عليها يثبطه عنها، ويبطئه ويعوقه. وإن سلكها فى معصية وجده عليها حاملاً له وخادمًا، معينًا ومزينًا قال تعالى ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧).

ثم الزموا ثغر الأيدى والأرجل، فامنعوها أن تبطش بما يضركم أو تمشى فيه، وقيدوها عن الأعمال الصالحة، وحركوها لتشمى فى كل شر وفساد، وتبطش بكل صالح تقى.

واعلموا أن اكبر أعوانكم النفس الأمارة، فاستعينوا بها على حرب النفس المطمئنة. فإذا قويت النفس الأمارة، فاستنزلوا القلب من حصنه، واعزلوه عن مملكته، وولوا مكانه النفس الأمارة، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه.

واستعينوا على بنى آدم بجنديين عظيمين:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بنى آدم عن الله، وعن أوامر الله، وعن الدار الآخرة، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه.

والثاني: جند الشهوة فزينوا الشهوات فى قلوب بنى آدم، وحسنوها فى أعينهم، فإن رأيتم جماعة اجتمعوا على ذكر الله، ولم تقدروا على تفريقهم، فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الإنس البطالين.

وانتهزوا فرصة الشهوة والغضب، فلا تصطادوا بنى آدم فى أعظم من هذين الوطنين، فإنى أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة، وألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سبأ: ٢٠).

٥- الدلالة الثلاثية لمداخل الشيطان إلي الإنسان:

((الشهوة ...... والغضب ...... والهوى))

فالشهوة، وبها يصير الإنسان ظالمًا لنفسه، ومن نتائجها الحرص والبخل.

والغضب، وهو آفة أعظم من الشهوة، وبالغضب يصير الإنسان ظالمًا لنفسه ولغيره، ومن نتائجه العجب والكبر.

والهوى، وهو آفة أعظم من الغضب، وبالهوى يتعدى ظلمه إلى خالقه بالشرك والكفر، ومن نتائجه الكفر والبدعة والمعصية.

٦- أنواع الوسوسة فى صدور الناس :

١- إنس ... ٢- وجن .

فالجنى يوسوس فى صدور الناس... والإنسى أيضًا يوسوس إلى الإنسى.

والوسوسة: الإلقاء الخفى فى القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنسان كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١١٢).

فشياطين الإنس والجن يشتركون فى الوحى الشيطانى، ويشتركون كذلك فى الوسوسة، ويشتركون كذلك فى الفساد والإفساد.

وكما أن الملائكة ليس لهم عمل إلا عبادة الله وطاعته، فهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

فكذلك الشيطان وذريته ليس لهم هم ولا عمل إلا إضلال بنى آدم، وإغواؤهم ابتلاء من الله، ليعلم من يطيعه ممن يطيع عدوه. وحيل الشيطان، ومكره، وكيده، وخطواته فى تحقيق ما يريد، من أعجب العجب.

إذا أقبل على الإنسان بجنوده وعساكره... فوجد القلب فى حصنه جالسًا على كرسى مملكته... أمره نافذ، وجنده قد أحاطوا به... يحرسونه ويدافعون عنه.

فلا يتمكن الشيطان وجنوده من الهجوم عليه إلا بمساعدة بعض أعوانه، وأخص جنده وهى النفس، فزينوا لها الشهوات والمحبوبات، حتى استولت على القلب، ومكنت للشياطين من الاستيلاء على ثغور المملكة:

((العين .... والأذن .... واللسان .... والفم .... واليد .... والرجل)).

وأمر الشيطان جنوده بالمرابطة على هذه الثغور.

وقال: ادخلوا منها إلى القلب لتقتلوه، ولا تمكنوا أحداً يدخل منها إلى القلب، فيخرجكم منه، ويفسده عليكم.

وامنعوا ثغر العين أن يكون نظرها اعتبارًا، بل اجعلوه تفرجًا وتلهيًا، وبالعين تنالون بغيتكم من بنى آدم.

فابذروا فى القلوب بذور الشهوة، ثم اسقوه بماء الأمنية، ثم عِدوه ومنّوه حتى تقوى عزيمته، فيقع فى المعصية فيهلك. ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم أمركم .

واجتهدوا ألا يدخل منه إلا الباطل واللهو، فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتطرب له.

وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله ورسوله، لئلا يفسد عليكم أمركم، ويحرق سلعتكم.

فإن دخل شيء فأفسدوه عليه بإدخال ضده عليه أو تهويله. ثم امنعوا ثغر اللسان أن يدخل منه ما ينفع القلب، من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه، ونصح عباده، والدعوة إليه.

وزينوا له الكلام بما يضره ولا ينفعه، إما بالتكلم بالباطل، وإما بالسكوت عن الحق.

فالرباط ... الرباط ... الرباط ... على هذا الثغر أن يتكلم بحق، أو يمسك عن باطل. وهذا الثغر هو الثغر الأعظم، الذى أهلك منه الشيطان بنى آدم، وأكبهم على مناخرهم فى النار.

واقعدوا لبنى آدم بكل رصد ... وبكل طريق ... وبكل مناسبة: قال تعالى ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٦ — ١٧).

الكلمة الأخيرة حول برنامج عمل إبليس:

بدأ عمل إبليس منذ أن طرده الله من الجنة بعد أن رفض السجود لآدم، والبرنامج العملى لإبليس يتلخص بالنقاط التالية:

١- إخراج آدم وحواء من الجنة وذلك بالوسوسة لهما حتى وقعا فى معصية الله وأكلا من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها.

قال تعالى ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٣٦).

وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ (طه: ١٢٠ — ١٢١).

٢- الدعوة إلى التعرِّى وكشف السوآت والخلاعة فى اللباس.

قال تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ (الأعراف: ٢٠).

٣- إغواء عامة الناس وذلك بتحسين الأعمال القبيحة وتزيينها فى عيونهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الحجر: ٣٩ — ٤٠).

٤- العداوة لآدم وحواء وذريتهما.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ (طه: ١١٧).

وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (البقرة: ٣٦).

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (الأعراف: ٢٤).

٥- القعود على الصراط المستقيم لإخراج الناس عنه بإتيانهم من كل جهات الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف: ١٦ — ١٧).

٦- اتخاذ الغناء الفاحش والماجن كوسيلة فى إضلال الناس وصرفهم عن كتاب الله.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ (الإسراء: ٦٤).

٧- وعد الناس بالباطل والكذب عليهم وإلهاؤهم بالخداع والغش.

قال تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ (الإسراء: ٦٤).

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ (النساء: ١٢٠).

٨- اتخاذ أتباعه ورجاله وذريته كوسيلة لتحقيق أهدافه المتمثلة بهذا البرنامج.

قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ (الإسراء: ٦٤).

٩- صرف الناس عن الكسب الحلال إلى الكسب الحرام وعن أكل الحلال إلى أكل الحرام، وأمر بالسوء والفحشاء، وتشجيع الناس بأن يفتروا على الله ويقولوا على الله ما لا علم لهم به.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (البقرة: ١٦٨ - ١٦٩).

١٠- نهى الناس عن الإنفاق في سبيل الله بتخويفهم من الفقر، والدعوة إلى الفحش والتفحش.

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ (البقرة: ٢٦٨).

١١- تشجيع المؤمنين على الفرار من الزحف حين ملاقاة المشركين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

١٢- تخويف المؤمنين من ملاقاة الكافرين ومجاهدتهم وذلك من خلال أتباعه بإرسالهم للوسوسة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ (آل عمران: ١٧٥).

١٣- تشجيع المؤمنين على التحاكم للطواغيت حكّام الجاهلية وتشجيعهم على عدم الكفر بهم.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) ﴾ (النساء: ٦٠).

١٤- تشجيع الكافرين على قتال المؤمنين بالتحريش بينهم والإيقاع بينهم.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾

(النساء: ٧٦).

١٥- إشاعة الشبهات بين المسلمين وإفشاؤها قبل التثبت منها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) ﴾ (النساء: ٨٣).

١٦- أمر الناس بشق آذان الأنعام وتسييبها للأصنام كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية.

قال تعالى: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ﴾

(النساء: ١١٩).

١٧- أمر الناس بتغيير خلق الله، ومثاله إخراج الناس عن فطرة الإيمان التي خلقها عليها، ومثاله أيضاً الدعوة إلى التنمُّص والوشم والتفلُّج للحسن.

قال تعالى: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (النساء: ١١٩).

قال رسول الله ﷺ: "لعن الله النامصات والمتنمصات، والواشمات والمستوشمات، المتفلجات للحسن، المغيرات لخلق الله"[١].

---

(١) مسلم (٢٩٦٦) كتاب اللباس والزينة.

١٨- الدعوة إلى الخمر والميسر (القمار) والأنصاب (الأصنام) والأزلام (الاستقسام بالأقداح) وسائر المحرمات والنجاسات وذلك لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس وصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾

(المائدة: ٩٠ — ٩١).

١٩- تزيين الشرك لأهله وتحسينُهُ فى عيونهم مما يورثهم قساوة القلب وعدم التضرع إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ (الأنعام: ٤٢ — ٤٣).

٢٠- تشجيع الناس على الخوض فى آيات الله بالاستهزاء والسخرية وتنسية المؤمنين الحاضرين لهذه المجالس بما أمرهم الله به من عدم القعود فيها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾ (الأنعام: ٦٨).

٢١- تحريم أكل ما أحل الله من الأنعام (الإبل والبقر والغنم والمعز) بتسييبها للآلهة وتخصيصها للأصنام.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٤٢).

٢٢- صرف الناس عن مكارم الأخلاق والعفو والمعروف بالنزغ والوسوسة والإنساء.

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(الأعراف: ١٩٩ — ٢٠١).

٢٣- تخويف المؤمنين حين لقائهم مع الكافرين فى ساحات القتال. قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

(الأنفال: ١١).

٢٤- تشجيع الكافرين على قتال المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٨).

٢٥- الكيد بين الإخوة بإيقاع الحسد فى قلوبهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ (يوسف: ٥).

وقال تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ (يوسف: ١٠٠).

٢٦- الإستماع إلى أخبار السماء وإعطاؤها لأتباعه من الناس لإضلالهم وصدهم عن دين الله، ويشاركه فى هذا العمل أتباعه من الجن.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (الحجر: ١٦ – ١٨).

٢٧- تشجيع الناس على التبذير وهو الإنفاق فى غير طاعة الله وذلك كفر وجحود بنعمة الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٦ – ٢٧).

٢٨- الإيقاع والوسوسة بين الناس بتأويل كلام بعضهم لبعض على وجه السوء.

قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (الإسراء: ٥٣).

٢٩- تشجيع الناس على المجادلة فى الله بغير علم كما كان يفعل مشركو العرب لإضلالهم وإيصالهم إلى النار.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ (الحج: ٣ – ٤).

٣٠- التلبيس على الكافرين بإسماعهم كلاماً لم يقله الأنبياء، فيه تحسين لما هم عليه من الكفر والشرك، وذلك حين تلاوة الأنبياء ما أُنزل عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج: ٥٢ – ٥٣).

٣١- تشجيع المشركين على شركهم، وذلك بالصدّ عن سبيل الحق وتحسين ما هم عليه من الشرك والعمل الفاسد.

قال تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النمل: ٢٤).

٣٢- التحريش بين الناس بما يؤدى للاقتتال وحصول القتل حتى لو كان غير عمد.

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص: ١٥).

٣٣- الدعوة إلى التقليد بالباطل وخاصة تقليد الآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ (لقمان: ٢١).

٣٤- خداع الناس وإلهاؤهم بالحياة الدنيا لصرفهم عن العمل ليوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: ٥ - ٦).

٣٥- العمل الجادّ لردّ المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر وعدم الاهتداء وذلك بتحسين الذنوب فى عيونهم واستدراجهم من هذا الباب.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ (محمد: ٢٥).

٣٦- تشجيع الناس على النجوى بما يشعر الآخرين من الحضور أن النجوى تخصهم وبالتالى إيقاع الضغائن بين الناس من خلال النجوى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١٠).

٣٧- تشجيع الناس على الكفر بالله.

قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ (الحشر: ١٦).

٣٨- الوسوسة للمشركين بأن القرآن من أقوال الشياطين وتحسين هذا الرأى فى عيونهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (التكوير: ٢٥).

٣٩- إضلال الناس بتعليمهم السحر وذلك من خلال أتباعه.

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾

(البقرة: ١٠٢).

٤٠- تهييج الكافرين على المعاصى وذلك من خلال أتباعه الشياطين.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾

(مريم: ٨٣).

هذا هو برنامج عمل الشيطان إبليس أعاذنا الله منه، فإذا اتبعه الناس، وهذا حاصل فى أكثرية الناس، فما هى النتيجة التى يصلون إليها؟!

إنها البراءة التامة: حيث يتبرأ الشيطان من أتباعه، فليحذر ذلك الناس وليعلموا هذه النتيجة من كتاب الله.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(إبراهيم: ٢٢).

هذا النص ما هو إلا خطبة رنانة يلقيها إبليس يوم القيامة ويبدو فيها كأنه شيخ الواعظين، يعلن فيها براءته من أتباعه ويعلن فيها صدق وعد الله وكذب وعده نفسه، وينفى عن نفسه الحول والقوة.

وهذا الذى يفعله إبليس يوم القيامة سبق له أن فعله مع الراهب فى قصة معروفة فى كتب التفسير، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الحشر: ١٦).

وسبق له أن فعله مع مشركى العرب يوم بدر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٤٨).

٧- الدلالة الثلاثية لمجاهدة هؤلاء الأعداء:

إحداها: سلاح الصبر، وبه يجتث شجرة الشهوات.

الثانى: اليقين، الذى يحطم الشبهات والأوهام كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (السجدة: ٢٤).

والثالث: الإخلاص ومخالفة الهوى، وهو أصعب شيء على النفس: يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ (الفاتحة: ٦).

والذنوب والخطايا، والمعاصي والسيئات، توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً، فيرتخي القلب، وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه.

٨- أدلة مرض القلب وصحته:

كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعلٍ خاص، به كماله في حصول ذلك الفعل منه.

ومرضه: أن يتعذَّر عليه الفعل الذى خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: البطش أو يتعذر عليها الكسب الحلال وتناول الحرام.

ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية.

ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق.

ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها.

ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولَذَّاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به؛ فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خالياً من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولابد، فيصير معذبا بنفس ما كان منعما به من الحسرة وفوت ما هو خير له وأنفع وأدوم.

٩- الإحساس بمرض القلب :

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك:

أنه لا تؤلمه جراحات القبائح. ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة. فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

لابد من الصبر على الدواء:

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها؛ فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه فى مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمرّ معه لضعف علمه وبصيرته وصبره.

١٠-الدلالة السباعية لمفسدات القلب وأسباب أمراضه :

- كثرة الخلطة .
- التمنى .
- التعلق بغير الله تعالى.
- الشبع.
- كثرة النوم.
- فضول النظر.
- فضول الكلام.

فهذه السبعة من أكبر مفسدات القلب، فنذكر آثارها التى اشتركت فيها، وما تميز به كل واحد منها.

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطريق، بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره.

وهذه السبعة تطفئ نوره، وتثقل سمعه إن لم تَصمه وتُبكمَه وتعمى عين بصيرته وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته، وتُفَتِّر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه؛ فهذه جنته العاجلة. كما أنه لا نعيم له فى الآخرة، ولا فوز إلا بجواره فى دار النعيم فى الجنة الآجلة. فله جنتان؛ لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وهذه الأشياء السبعة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللاً، إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

أولا: كثرة الخلطة:

فامتلاء القلب من دخان أنفاس بنى آدم حتى يسودَّ، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهماً وغماً، وضعفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقسُّم فكره فى أودية مطالبهم وإرادتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟!

وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وأوقعت فى بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس.

وهذه الخلطة التى تكون على نوع مودة فى الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندماً.

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(الفرقان: ٢٧ — ٢٩).

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(الزخرف: ٦٧).

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(العنكبوت: ٢٥).

وهذا شأن كل مشتركين فى غرض؛ يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألماً، وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنة، وذماً من بعضهم لبعض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٢٧ — ٢٨).

النافع فى أمر الخلطة: أن يخالط الناس فى الخير — كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة — ويعتزلهم فى الشر والصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة.

ثانيا: التمنى:

والمفسد الثانى من مَفسدات القلب ركوبُه بحرَ التمنّى، وهو بحر لا ساحل له .

وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذى يقربه إلى الله ويدنيه من جواره، فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة، وأمانى أولئك خدع وغرور.

ثالثا: التعلق بغير الله تعالى:

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ (مريم: ٨١ – ٨٢).

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (يس: ٧٤ – ٧٥).

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرَّض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

فأساس الشرك وقاعدته التى بنى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٢). مذموماً لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك.

رابعا: الشبع:

** والمفسد له من ذلك قسمان:

أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات؛ وهى نوعان:

- محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (المائدة: ٣).

- ومحرمات لحق العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٨).

والثاني: ما يفسده بقدره، وتعدى حده، كالإسراف فى الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذى بثقلها،

وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجارى الشيطان ووسعها، فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخسر كثيراً .

خامسا : كثرة النوم :

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً، ومنه الضار غير النافع للبدن.

وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه، وكثر ضرره، ولاسيما نوم العصر، والنوم أول النهار إلا لسهران.

سادسا : فضول النظر :

(نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فكلام .. فموعد .. فلقاء)

إن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقع صورة المنظور إليه فى القلب، والاشتغال به والفكرة فى الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة

والمقصود : أن فضول النظر أصل البلاء .

سابعا : فضول الكلام :

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة.

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولايسأمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات.

١١- حجب القلب عن الرب تعالى:

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المطففين: ١٤).

هو الذنب بعد الذنب يغطى القلب حتى يصير كالران عليه.

ليس الأمر كما زعموا, بل هو كلام الله ووحيه إلى نبيه, وإنما حجب قلوبهم عن التصديق به ما غشاها من كثرة ما يرتكبون من الذنوب.

والحجب عشرةٌ:

الأول: حجاب التعطيل، ونفى حقائق الأسماء والصفات، وهو أغلظها فلا يتهيأُ لصاحب هذا الحجاب أنْ يعرف اللهَ ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأُ للحجَرِ أنْ يصعدَ إلى فوق.

الثاني: حجابُ الشِّركِ ، وهو أنْ يتعبَّد قلبه لغير اللهِ.

الثالث: حجاب البِدْعَةِ القوليّة، كحجابِ أهلِ الأهواءِ، والمقالاتِ الفاسدةِ على اختلافها.

الرابعُ: حجابُ البدْعَةِ العملية، كحجابِ أهل السلوك المبتدعين فى طريقهم وسلوكهم.

الخامسُ: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها.

السادسُ: حجابُ أهل الكبائرِ الظاهرة، وحجابُهم أرقّ من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم، واجتهاداتهم.

السابع: حجابُ أهلِ الصغائرِ .

الثامنُ: حجابُ أهلِ الفَضَلاتِ، والتوسع فى المباحات.

التاسعُ: حجابُ أهلِ الغفلةِ عن استحضارِ ما خُلِقوا له وأُريدَ منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشرُ: حجابُ المجتهدينَ السالكينَ، المشمِّرينَ فى السَّيْرِ المقصود .

فهذه عشرة حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى تحول بينه وبين هذا الشأن. وهذه الحجب تنشأُ من أربعةِ عناصر :

عنصر النفس - وعنصر الشيطان - وعنصر الدنيا - وعنصر الهوى

فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها فى القلب البتة.

وهذه الأربعة العناصر، تفُسد القول والعمل والقصد والطريق، بحسب غَلَبتها وقلتها، فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب، وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب.

وأقام الله سبحانه من ذلك العلم للقلب فبدأ يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه:

١ . يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعى الهوى .

٢ . يحارب الدنيا بالزهد فيها وإخراجها من قلبه ولا يضره أن تكون فى يده وبيته.

٣ . يحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق والوقوف معه.

٤ . يحارب النفس بقوة الإخلاص.

١٢- الدلالة الثلاثية على الخير والشر فى التقلب والثبات للقلوب :

إحداها: قلب عُمر بالتقوى، وطهر عن خبائث الأخلاق، فيه خواطر الخير، المفتوحة فيه أبواب الملائكة، المسدودة عنه أبواب الشياطين، يرى الحق ويحبه، ويعمل به، ويدعو إليه، ويصبر عليه، وينفر مما سوى ذلك.

الثاني: قلب مخذول مشحون بالهوى، مدنس بالأخلاق المذمومة، والقبائح والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة.

ومبدأ الشر فيه، خاطر الهوى فيأنس به ويستجيب له فيرى الباطل ويحبه، ويعمل به، ويدعو إليه، ويصبر عليه، وينفر مما سواه.

الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان والهدى، فيدعوه إلى الخير والهدى.

فتنبعث النفس بشهواتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة، وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير، فيدفع عن وجهه الشهوة، ويقبحها ويقبح فعلها، وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر، وقلة اكتراثها بالعواقب.

فتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان حملة على العقل، فيقوى داعى الهوى، ثم يحمل الملك على الشيطان، فعند ذلك تستجيب النفس إلى قول الملك. ولا تزال الأحزاب والجنود متوالية عليه، حتى يظفر به أقواهما وأصبرهما.

وقد جعل الله للشيطان دخولاً فى جوف العبد، ونفوذًا إلى قلبه وصدره، فهو يجرى منه مجرى الدم، ويتجول على سائر أعضائه وجوارحه.

وقد وصف الله عزَّ وجلَّ الشيطان بأعظم صفاته، وأشدها خطرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهى الوسوسة التى هى مبادئ الإرادة.

فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه الشيطان، ويخطر الذنب بباله، ويشهيه له، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، وينسيه علمه بضررها، ويطوى عنه سوء عاقبتها، فلا يرى إلا صورة المعصية فقط، وينسيه ما وراء ذلك.

فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود فى الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا.

فإن فتروا حركهم، وإن سكنوا أزعجهم كما قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ (مريم: ٨٣). فأصل كل معصية الوسوسة، ولهذا وصفه الله بها، وحذرنا: قال تعالى ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ (الناس: ٤ — ٦).

١٣- أمراض القلب:

أمراض القلب نوعان:

الأول: مرض لا يتألم به صاحبه فى الحال؛ كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات.

وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لفساد القلب لا يُحس بالألم، ولأن الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم.

وهذا أخطر المرضين وأصعبهما. وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض، ولا شفاء منه إلا باتباع ما جاءوا به من الهدى.

الثانى: مرض مؤلم له فى الحال، كالهمِّ والغمِّ والحَزَنِ والغيظ ونحوها.

وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب؛ وما يدفع موجبها مع قيامها.

فقلب الإنسان قد يتألم بما يتألم به البدن، ويشقى بما يشقى به البدن.

فأمراض القلب التى تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت.

وأما أمراضه التى لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهى التى توجب له الشقاء والعذاب الدائم، إنْ لم يتداركها بأدويتها المضادة لها. فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء.

قال تعالى ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥ ﴾ (التوبة: ١٤-١٥). فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائد هى (**يعذبهم الله — ويخزهم — وينصر المؤمنين عليهم — ويشف صدورهم — ويذهب غيظ قلوبهم — ويتوب على من يشاء**) .

القرآن متضمن لأدوية القلب:

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ (يونس: ٥٧).

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ ﴾ (الإسراء: ٨٢). شفاء القرآن لمرض الشبهات: ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبُه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هى عليه. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك؛ ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه.

١٤- الباطل يؤدى إلى تحريف الحق:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ المائدة: ٤١. عقيب قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وهذا يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه ردَّه وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرَّفه.

وكذلك شأن المنحرفين، فإنهم لما لم تطهر قلوبهم، تعوضوا بالسماع الشيطانى عن السماع القرآنى الإيمانى.

فالقلب الطاهر – لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث– لا يشبع من القرآن، ولا يتغذّى إلا بحقائقه. ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذى لم يطهره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التى تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة. فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائِمه الأغذية التى تلائم الصحيح. ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله.

الباب الثالث

ويتضمن:

١- لفظ القلب فى القرآن الكريم .

٢- لفظ الفؤاد ولفظ الصدر .

٣- أدلة أهل العلم أن العقل محله القلب .

٤- علاقة الفؤاد بالقلب.

الباب الثالث

١- لفظ القلب فى القرآن الكريم :

ورد لفظ القلب فى القرآن الكريم اثنتين وثلاثين ومائة مرة، وذلك فى أربع وعشرين ومائة آية، ضمن ثلاث وأربعين سورة .

وبالتأمل فى تلك الآيات الكريمات باعتبارات متعددة، يمكن استنتاج بعض الملامح الكاشفة لسياقات لفظ القلب فى القرآن على سبيل الإجمال، **ومن ذلك ما يلي:**

١ – **ورد لفظ القلب بصيغة الإفراد تسع عشرة مرة،** ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٤)، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق: ٣٧).

وورد بصيغة الجمع فى بقية المواضع، ومن ذلك قول الله تعالى:

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ (البقرة: ١١٨).
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ (الأنفال: ٧٠).
- ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (التوبة: ٦٠).

ويستثنى من ذلك موضع واحد ورد فيه لفظ القلب بصيغة التثنية، هو قول الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ (الأحزاب: ٤).

والنفى فى هذه الآية الكريمة لتقرير أن القلب فى جوف المرء لا يتعدد، إنما هو قلب واحد، يقبل الإيمان، أو يقبل الكفر، ولا يجمع بين الضدين من أفعاله فى آن.

٣- ورد لفظ القلب مضافاً إلى الملائكة أو بعض أولى العزم من الرسل عليهم السلام، وذلك فى سبع آيات كريمات، أربع منهن تخاطب رسولنا ﷺ، واثنتان فى شأن إبراهيم عليه السلام، وواحدة فى شأن الملائكة عليهم السلام.

يقول الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٩٧).

تقرر الآية الكريمة أن جبريل عليه السلام هو من شرفه الله سبحانه بتنزيل القرآن على قلب رسول الله ﷺ.

ومثلها قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤).

والتعبير بالتنزيل على القلب فيه معنى الوعد لرسول الله ﷺ بأنه سيحفظ ما يتنزل عليه من كلام ربه جل شأنه فلا ينساه، وسيعيه بقلبه ويفهمه ويتمكن منه، مصوناً من أى تبديل أو تغيير.

(جعل الله الروح نازلاً به على قلبك، أى فهمك إياه، وأثبته فى قلبك إثبات ما لا ينسى).

ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (الشورى: ٢٤).

والآية الكريمة تتضمن الرد على اتهام أهل الكفر لرسول الله ﷺ بالافتراء والكذب فى قضية الوحى الإلهى، إذ لو كان الاتهام صحيحاً لعاقبه الله سبحانه وتعالى بالختم على قلبه. ومن ثم فإن مفهوم الآية يؤكد أن قلب رسول الله ﷺ محفوظ برعاية الله سبحانه.

والآية الرابعة قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩). ومفهوم الآية الكريمة يفيد وصف رسول الله ﷺ بلين القلب ورقته.

وأما الآيتان فى شأن إبراهيم عليه السلام فهما قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾

(الصافات: ٨٣ – ٨٤). تذكر الآية الأولى طلب إبراهيم عليه السلام من ربه جل وعلا مشاهدة كيفية إحياء الموتى، يبغى من وراء ذلك زيادة إيمان، ورفعة يقين.

وتثنى الآية الثانية عليه ﷺ، وذلك بوصف قلبه بالسلامة من كل شر، والبراءة من كل عيب وسوء.

أما الآية فى شأن الملائكة عليهم السلام فهى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ (سبأ: ٢٣).

وهى مقررة لحال الملائكة من الخوف والوجل، والمهابة والتعظيم، وهم ينتظرون وحى ربهم سبحانه.

٣– ورد لفظ القلب فى مواضع من القرآن الكريم فى سياق تقرير كمال قدرة الله جل شأنه فى خلقه، وتقرير كمال علم الله جل وعلا بعباده، وإحاطته سبحانه بما يضمرونه فى قلوبهم، ومن ذلك قول الله تعالى فى شأن كمال القدرة الإلهية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (الأنعام: ٤٦).

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٣).

**** ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى فى شأن كمال العلم الإلهى :**

- ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (النساء: ٦٣).
- ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾

(الأحزاب: ٥١).

٤- ورد لفظ القلب فى سياق الحديث عن أصحابه من أهل الإيمان أو الكفر أو النفاق، وذلك فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

**** فما ورد فى شأن المؤمنين قول الله تعالى :**

- ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (آل عمران: ١٢٦).
- ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (التوبة: ١٤ - ١٥).

**** ومما ورد بخصوص الكافرين قول الله تعالى :**

- ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ (الزمر: ٤٥).
- ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾

(الفتح: ٢٦).

**** أما ما ورد فى أهل النفاق فمنه قول الله تعالى :**

- ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (التوبة : ٤٥).
- ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (التوبة : ٦٤).

٥- فى القرآن الكريم اثنتا عشرة آية عرضت للذين فى قلوبهم مرض ، ومن ذلك - على سبيل التمثيل - قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الأحزاب : ١٢)، ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ (محمد : ٢٩).

٦- ورد لفظ القلب فى عدة مواضع من القرآن الكريم موصوفاً بصفة مدح أو ذم.

ومن الأمثلة على المدح وصف القلب بالطمأنينة فى قول الله تعـالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ (النحل : ١٠٦).

وبالوجل فى قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون : ٦٠).

وبالإنابة فى قول الله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (ق : ٣٣).

وبالمقابل فإن من الأمثلة على وصف القلب بصفة ذم ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النحل : ٢٢).

وفى قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ (٣٥) ﴾ غافر: ٣٥. وكذلك فى قول الله تعالى: ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ﴾ (الحشر: ١٤).

٧- ورد لفظ القلب فى سياق ما قدره الله جل شأنه من مجازاة المؤمنين والكافرين، وذلك فى مواضع متعددة من كتاب الله العزيز.

ومن ذلك قول الله تعالى فى سياق ثواب المؤمنين على سلوكهم طريق الخير واليقين والحق والهدى: ﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا ﴾ الكهف: ١٤، ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠) ﴾ (القصص: ١٠)، ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ (١١) ﴾ (الأنفال: ١١)، ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١).

وفى سياق العقوبة لأهل الكفر والنفاق على سلوكهم طريق الضلال والعناد والإجرام يقول الله جل وعلا: ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ (آل عمران: ١٥١).

﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ ﴾ (المائدة: ١٣).

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ (١٢٧) ﴾ (التوبة: ١٢٧).

٨- ورد لفظ القلب مسنداً إليه معانيه القائمة به على سبيل الثناء.

الأول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٢)، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحج: ٣٢).

الثانى قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤)، ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

٩- ورد لفظ القلب فى ثلاث آيات من القرآن الكريم سياقها الدعاء،

اثنتان منهما تتضمنان الدعاء للمؤمنين، هما قول الله تعالى:

الأولى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٨).

والثانية فى قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحشر: ١٠).

والثالثة فى دعاء نبى الله موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما بلغوا الغاية فى العناد والطغيان، وتبين له عليه السلام أن لا مجال لاتجاههم للخير والصلاح.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (يونس: ٨٨).

وما تضمنه الدعاء عليهم من الشد على قلوبهم هو بمعنى الطبع عليها، فلا تلين للهدى، ولا تنشرح للإيمان.

١٠ - ورد لفظ القلب فى أربع آيات كريمات، يعبر سياقها عن شدة الخوف، ويصور مواقف الفزع والاضطراب.

• إحدى هذه الآيات فى الدنيا، والباقيات فى شأن الآخرة:

أما الأولى فهى قول الله تبارك تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٠).

وهو تصوير كاشف لموقف المؤمنين يوم الأحزاب، حين تكالبت عليهم جموع الكفر، فاشتد الحال، وعظم الكرب، ووقع ما أخبر الله جل وعلا: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ (الأحزاب: ١٠).

والمراد أن القلوب لعظم ما أصابها من الاضطراب والروع والخفقان، والفزع من توقع الشدائد، تحركت من أماكنها فى الصدور.

• وأما الآيات الثلاث فى خبر يوم القيامة:

فأولها قول الله جل شأنه:

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ (النازعات: ٨). والمراد قلوب الكفار، يصيبها فى ذلك اليوم الوجل والخوف وشدة الاضطراب.

والثانية قول الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (النور: ٣٧).

وما تضمنته الآية الكريمة من تقلب القلوب وتحولها عن أماكنها هو نتيجة لما يحصل فى الآخرة من الأهوال العظيمة والفزع الشديد.

والآية **الثالثة** قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ (غافر: ١٨).

أى تحركت القلوب عن أماكنها إلى الحناجر من الفزع وعظم الهول، فلا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا، ولا ترجع إلى صدورهم فتستقر أحوالهم.

٢- لفظ الفؤاد ولفظ الصدر:

يرد اللفظان فى القرآن الكريم مراداً بهما القلب فى الغالب، ولذا تضاف إليهما المعانى المتعلقة بالقلب.

أما لفظ الفؤاد فقد ذكر فى القرآن ست عشرة مرة، فى خمس عشرة آية، ضمن ثلاث عشرة سورة.

وأما لفظ الصدر فقد ذكر أربعاً وأربعين مرة، فى إحدى وأربعين آية، ضمن ثلاثين سورة.

وفيما يلى ذكر بعض تلك الآيات الكريمات التى عبر فيها عن القلب بلفظ الفؤاد أو الصدر، **وذلك على سبيل التمثيل:**

١- قال الله تعالى فى معرض الامتنان على عباده وإقامة الحجة عليهم:

- ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النحل: ٧٨).
- ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٦).
- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (المؤمنون: ٧٨).

• ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (السجدة: ٩).

• ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الأحقاف: ٢٦).

• ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الملك: ٢٣).

والمقصود بالفؤاد فى هذه الآيات القلب كما ذكر المفسرون.

٢- وقال الله تعالى فى معرض الامتنان على رسوله ﷺ :

• ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠).

• ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٢).

والفؤاد فى الآيتين القلب، وتثبيته تقويته وتسكينه بما يتنزل على رسول الله ﷺ من كلام ربه سبحانه.

٣- وقال الله تعالى فى شأن الظالمين وعذابهم فى الآخرة :

• ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

(إبراهيم: ٤٣).

• ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ ﴾ (الهمزة: ٦-٧).

فالآية الأولى تبين أن أبصار الظالمين شاخصة، وقلوبهم فارغة خالية خاوية، والمراد شدة الخوف كما يرونه من أهوال يوم القيامة.

وتبين الآية الثانية أن عذاب النار يستولى على الأبدان، بحيث يبلغ ألمه ويصل إحراقه إلى القلوب التى هى أخص الأعضاء وألطفها، والعياذ بالله تعالى .

٤- وقال الله تعالى فى شأن رسوله ﷺ :

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ (النجم: ١١). والمعنى أن ما شاهده رسول الله ﷺ ليلة المعراج لم يكن تخيلاً كاذباً، بل كان واقعاً حقاً، ولذا صدق قلبه عليه الصلاة والسلام ما رأته عيناه .

٥- وقال الله تعالى فى تقرير كمال علمه جل شأنه بما يسره العبد فى قلبه ويضمره:

- ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (آل عمران: ٢٩).
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: ١١٩).
- ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الأنفال: ٤٣).
- ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (النمل: ٧٤).
- ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (القصص: ٦٩).
- ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (العنكبوت: ١٠).
- ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر: ١٩).
- ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحديد: ٦).
- ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (التغابن: ٤).

والصدور فى هذه الآيات بمعنى القلوب، إذ الصدر محل القلب، فقام مقامه. والمراد بذات الصدور ما تضمره وتسره القلوب، وما تنطوى عليه وتكنه وتخفيه، من النيات والخواطر، والبواعث، وسائر ما يحصل فيها من الأفعال خيراً أو شراً.

٦- وقال الله تعالى فى شأن نعيم المؤمنين فى الجنة:

- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ (الأعراف: ٤٣).
- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٧).

والمراد أن من أنواع النعيم تصفية قلوب المؤمنين، وإخراج ما فيها من الحسد والحقد، والعداوة والبغض، إذ الجنة لا كره فيها ولا غل.

٧- وقال الله تعالى تسلية لرسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (الحجر: ٩٧).

وفى هذا المعنى يرد أيضاً قول الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ (هود: ١٢).

وقوله سبحانه فى شان موسي عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الشعراء: ١٢ - ١٣).

والضيق الحزن والانقباض، يعرض لرسول الله ﷺ أحياناً، بحسب الطبيعة البشرية، فيتنزل عليه القرآن مسلياً له، مثبتاً لقلبه، داعياً له إلى الصبر والالتجاء إلى الله جل وعلا.

٨- **وقال الله تعالى ممتنا على رسوله ﷺ :** ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (الشرح: ١).

تثبت الآية الكريمة ما أنعم الله تبارك وتعالى به على رسوله ﷺ من شرح صدره عليه الصلاة والسلام .

٩- ذكر مرض القلب في آيات كريمة :

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ (البقرة: ١٠).

وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ (الحج: ٥٣).

وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ (الأحزاب: ٣٢).

أمرهن تعالى أن لا يَلِنَّ في كلامهن، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يَخْشَنَّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفاً .

وقال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ (المدثر: ٣١).

• وشفاء لما فى الصدور من الجهل والغى قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

(يونس: ٥٧).

• وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذين الداءين فقال تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ (النجم: ١ — ٢).

٣- أدلة أهل العلم أن العقل محله القلب ما يلى:

١- قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ (الحج: ٤٦).

ووجه الاستدلال أن الآية الكريمة صرحت بأن وظيفة القلب العقل، كما أن وظيفة الأذن السمع.

((هذه الآية تقتضى أن العقل فى القلب)). وإسناد العقل إلى القلب يدل على أنه محله.

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ﴾

(الأعراف: ١٧٩).

وجه الاستدلال أن الآية الكريمة أضافت منفعة كل عضو إليه، فجعلت منفعة الفقه مختصة بالقلب، ومنفعة البصر مختصة بالعين، ومنفعة السمع مختصة بالأذن، وذلك فى سياق الذم لأهل الكفر الذين لم ينتفعوا بهذه الوسائل فى إدراك ما ينفعهم من الخير والهدى. والفقه هو العلم والفهم، فثبت بذلك أن العقل فى القلب .

٣- قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ (ق: ٣٧).

أى عقل، عبر بالقلب عنه لأنه موضعه ومكان استقراره، مما يدل على أن القلب محل العقل .

٤- أضاف القرآن الكريم الصفات المضادة للعلم إلى القلب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦)، ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (البقرة: ٧)، ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

فهذه الآيات الكريمات تفيد أن الجهل محله القلب، مما يشير بدلالة المفهوم إلى أن موضع العقل والفهم هو القلب .

٥- حديث النعمان بن بشير ﷺ عن رسول الله ﷺ، وفيه: [ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب].

٤- علاقة الفؤاد بالقلب:

إن الفؤاد أخص من القلب، ودائرة القلب أعم.

فالفؤاد على هذا القول باطن القلب، أو وسط القلب، وعلاقته بالقلب كعلاقة القلب بالصدر، ومن ثم فهو يمثل الدائرة الأصغر والأعمق ضمن دوائر النفس.

وعلى كل فإن عدداً من المفسرين يرى أن الفؤاد يعبر به عن القلب فى آيات الكتاب العزيز، وكثيراً ما يفسرون لفظ الفؤاد فى مواضعه بالقلب.

الفؤاد وعلاقته بالقلب:

الفؤاد مأخوذ من فأد، يفأد، فأدا. وهو ((أصل صحيح يدل على حمى وشدة حرارة، ومن ذلك فأدت اللحم: شويته)). ((وافتأدوا: أوقدوا نارًا، والمفتأد: موضع الوقود، والتفؤد التوقد)) .

والفؤاد : القلب، والجمع أفئدة. وعلى هذا فاللفظان مترادفان فى المعنى. وسمي القلب بالفؤاد لتوقده وحرارته.

والقلب هو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربه، وهو الذى إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، ومن جهل نفسه فقد جهل ربه، ومن عرف ربه فقد عرف كل شيء، ومن جهل ربه فقد جهل كل شيء .

ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل؛ وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وربهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

والقرآن نور تستضيء به القلوب وتشرق به، وروح تحيا به القلوب، فالمؤمن حى أكرمه الله بالنور الذى يبصر به الحق من الباطل.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الزمر: ٢٢).

والكافر ميت القلب، مغمور فى ظلمة الجهل، لانصرافه عن طاعة الله، وجهله بمعرفته وتوحيده، وشرائعه وسننه، وترك العمل بما يؤدى به إلى نجاته وسعادته، بمنزلة الميت الذى لا ينفع نفسه ولا يدفع عنها مكروهًا .

فإذا هداه الله للإسلام، وجعل قلبه حياً بعد موته، مشرقاً ومستنيراً بعد ظلمته، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل فى خلاصها من سخط الله وعقابه، وأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور يستضيء به، ويمشى به فى الناس كما قال

سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأنعام: ١٢٢).

وحياة القلب واستنارته تحصل بالاستجابة لله والرسول، وما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الأنفال: ٢٤).

وحياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركاً للحق... مريداً له ... مؤثراً له على غيره ... فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه .

الخاتمة

قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾ (الصافات: ١٨٠ – ١٨٢).

فنختم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنى به على نفسه.

والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله.

ونسأله أن يُوزِعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلق ظَلوماً جَهولاً؟! ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته.

وقال النبي ﷺ: ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تبَعاً لما جِئْتُ بِهِ)).

فالعلم والعدل أصل كل خير، والظلم والجهل أصل كل شر، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾ (الشورى: ١٥).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،،

اللهم إنى كتب ما كتبت ، فإن كان صحيحاً فهذا من فضل الله ، وإن كان خطأ فهذا من نفسى والشيطان، إن الكمال المطلق لله رب العالمين، ورحم الله امرأ صحح لى خطأ ودلنى عليه ابتغاء وجه الله، فله من الله أحسن الجزاء، ختاماً أتوجه بالدعاء إلى الله أن يغفر خطيئتى ويتجاوز عن زلتى، ويجعلنى فى خدمة دينه وعباده، وما توفيقى إلا بالله.

الفقير إلى الله تعالى
محمد محمود حماد

الفهرس

الباب الثاني

الباب الثالث:

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٠٥٤ لسنة ٢٠٠٩

الترقيم الدولى 977/17/7151/5

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٣٩٠٩٧ س ٢٠٠٩ – ٣٠٠٠



وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون
الله نور السموات والأرض
Bibliotheca Alexandrina
1112901